

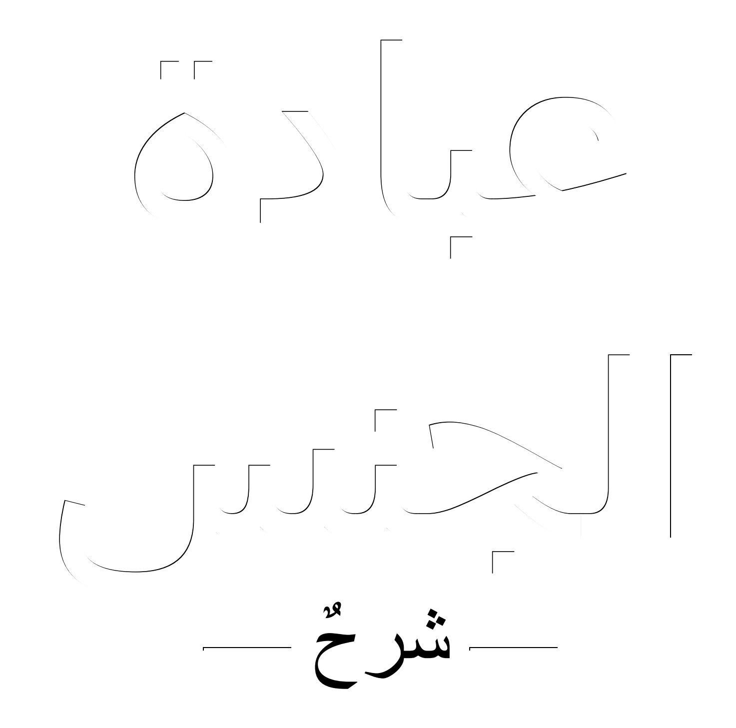
— شرحٌ —

لأصل أديان عبـادة القضيب

تأليف: كليفورد هوارد (1909)

ترجمة: حكيم ميلادي (2011)

عبادة الجنس



شرحٌ

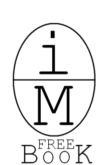
لأصل أديان عبادة القضيب

تأليف: كليفّورد هَوارد (**1909**)

ترجمة: حكيم ميلادي (2011)

0 9 8 7 6 5 4 3 2 1

قام بترجمة الكتاب ومراجعته لغويا وتدقيقه وتنفيذه فنيا:
حكيم ميلادي 2011©



هذا الكتاب هو رقم 012/11
ضمن سلسلة iM Free Book
تنشر على شبكة الانترنت للفائدة العامة

للإتصال بي:
hmiladi@gmail.com

Haken Miladi

1 مايو 2011



عبادة الجنس

شرح لأصل أديان عبادة القضيب

تأليف: كليفّورد هَوارد
ترجمة: حكيم ميلادي

الإصدار الأول

طرابلس – ليبيا

2011

الصورة: Pancha-Mukha Linga اللنجا المقدس بخمسة وجوه.
تمثل شيفا Shiva، الإله الخالق عند الهندوس. على جانبه الشرقي، له صورة Surya، إله الشمس؛ شمالا، صورة Ganesh؛ غربا، صورة Shiva و Parvati توضيحا لـ Kalyana Sundara؛ وعلى الجهة الجنوبيه، وجه Shiva و Nandi. إنّ الوجوه الخمسة على البانتشا-موخا-لنجا Panchamukhalinga ترمز الى Vamadeva، Sadyojata، Tatpurusha، Aghora و Ishana، التي هي السمات الخمسة لشيفا نفسه.
المصدر: http://www.exoticindiaart.com

هذه الصفحة تركت فارغة عن قصد

SEX WORSHIP:

AN EXPOSITION OF THE PHALLIC
ORIGIN OF RELIGION

BY
CLIFFORD HOWARD

FIFTH EDITION

CHICAGO MEDICAL BOOK COMPANY
CHICAGO
1909

- صفحة العنوان من النسخة الأصلية -

هذه الصفحة تركت فارغة عن قصد

|

كلمة المترجم

عبادة الجنس، عنوانٌ مثيرٌ لكتاب. لكن الأكثر إثارة هو ما يقدمه مؤلفه **كافورد هوارد**، وهو يحاول أن يوصل فكرة أن الأديان عن بكرة أبيها، سماوية ووضعية، ترجع الى طقوس وشعائر قام بها الانسان القديم، منذ أن إستطاع إدراك الظواهر الطبيعية من حوله. هذا لا يعنى أنه يقول أن الأديان السماوية بحد ذاتها هي أديان تعود طقوسها إلى ممارسات جنسية كان يقوم بها الإنسان قديما، لكنه يحاول تفسير بعض الممارسات والعادات التي لا نزال نمارسها حتى يومنا هذا، إعتمادا على مشاهدات شخصية ومراجع مثبتة، من إحتفالات وأعياد وغيرها، ترجع الى تلك الحقب الغابرة من التاريخ.

لقد كان سر الحمل والولادة والإنجاب أعظم الأسرار ولا تزال. وقد حاول عقل البشر تفسير هذه المعجزة الإلهية، وبما أنه كان يعزو كل سبب الى مسببه المباشر، مثل الحرارة للشمس والبرودة للثلج، إلخ.، فقد أدرك أن قضيب الرجل لابد وأن يكون هو هذا الخالق الذي يبحث عنه. فبجل هذا العضو الرجال والنساء، على السواء، إلا أن العنصر الأنثوي لم يُستثنى من هذه العبادة. ففي المجتمعات الزراعية، كان الخصب يُعزى دائما للشمس، الخالق، العنصر المذكر، وللماء –المني– سر الحياة. ومن ثم كانت الأرض، التي أعتبرت العنصر المؤنث، هي المستقبل لهذا الخصب، مثل الأنثى التي يعتبر رحمها، هو محل الخلق.

أما فعل الجنس والتناسل فقد كان سرا أو جوهر الدين عند القدماء. فبإتحاد الجنسين يتم فعل الخلق، وبهذا كانوا يتّحدون مع الإله جزئيا. وكان الفعل الجنسي مقدسا للغاية، وأنشأت له المعابد وأقيمت لأعياد الخصوبة مهرجانات وإحتفالات. ففي الشتاء حين تفقد الشمس قوتها، أو تختفى فعليا، تموت الحياة، أختلقت لهذه الظاهرة أساطير وخرافات وكرست الآلهة لخدمة هذه التفاسير؛ ومنها تعاقب سلطان الآلهة مع

تعاقب إنقلابات المناخ، وهي أولى التفاسير التي سيطرت على مخيلة العقل البشري قديما.

وللدعارة المقدسة، التي كرست لتبجيل الجوهر الأنثوي في الخلق، تاريخ حافل في هذا الشأن. فقد كانت العذراء، أم الإله، ملكة السماء، اساس العبادة الأنثوية في المجتمعات الزراعية. حيث أعتبرت الفتاة العذراء رمز الخصوبة الكاملة، ولهذا كان ولا يزال اليوم، من الواجب الديني عند بعض الشعوب (الهند مثلا) أن تقوم الفتاة بتقديم قربان لإلهة الخصوبة والأمومة في المعبد المكرس لها وذلك بتقديم نفسها للدعارة المقدسة لمصلحة المعبد. وقد كانت هذه العادات رائجة جدا، حتى أن الزوج يصحب عروسه للمعبد لتقدم القربان وهو فض بكارتها بقضيب من الحجر أو المعدن يمثل فالوس وثن الإله.

تحية للعقل
المترجم

هذه الصفحة تركت فارغة عن قصد

تقديم.

يهدف هذا العمل لتقديم عرض عامّ لعبادة الجنس sex worship، أو الفالوسية phallicism (عبادة قوي الطبيعة المُنتِجة)، لغرض تبيين أنّ المعتقدات الدينية المختلفة للعالم كان لها أصل مشترك، وأنها تأسست على قاعدة مادية طبيعية— هي تقديرُ الحياة في ظواهرها من الخلق وإعادة الإنتاج.

إن أيّ معالجة شاملة وكاملة للموضوع، بالطبع، هي خارج مجال هذا العمل، الذي حُدّد فقط لشرح المميزات البارزة الرئيسية للفالوسية (عبادة قضيب الرجل)، وفي علاقته المباشرة والواضحة بعلم اللاهوت والمعتقدات الدينية ورموز الدين المعاصرة. لم يحاول أبدا، معالجة أيّ وجه محدد أو أكثر تعقيدا للموضوع، ولا أن يطرح مناقشة لسماته الإجتماعية والفيسيولوجية، التي، بالرغم من قيمتها وأهميتها العظيمة، لن يكون معالجتها في هذا الكتاب المحدود مُنصفاً.

يقدّم هذا العمل كمية كبيرة من المعلومات البحثية الأصلية، بالإضافة لتحقيقات في المصادر الموثوقة على الموضوع، فقد دُرسَت كلّ تلك الأعمال بعناية. لقد تجنّب المؤلف تقديم أيّ تنويه في الهامش يوجه إلى هذه المصادر، لم يفعل هذا فقط لإخفاء تلك الملاحظات كي لا تخدم أيّ غرض عملي—عدا إرضاء القارئ الناقد، الذي ما فتيء الكاتب إستحضاره في مخيلته،—بل في هذه الحالة، كانت البيانات التي تحت أمر المؤلف قد جمعت من عدة مصادر مختلفة، والدليل المقدّم عليها متراكم بشكل كبير جدا، بينما هي في نفس الوقت تتشابك مباشرة مع الحقائق المشتقة من تحقيقات وإكتشافات خاصة بالمؤلف، الأمر الذي يجعل من الصعب تصنيف بياناته وفقاً لمصدرها الأساسي.

لذلك، يعتبر من الكافي هنا التذييل بقائمة الكتب الرئيسية[1] التي أُعتمد عليها في هذا الموضوع (الفالوسية *phallicism*) والتي رجع إليها المؤلف في تحضيره لهذا العمل. ففي الوقت الذي لا تمثل فيه هذه القائمة بيبلوغرافيا كاملة، إلا إنها على الأرجح تمثل أكثر الأعمال باللغة الإنجليزية أهمية التي تناولت **العبادة القضيبية**، وستكون، كما يؤمل، في خدمة من يرغب في بحث وتقصي هذا الموضوع بتفاصيل أكثر.

---

[1] أنظر الملحق نهاية الكتاب

كلّ هذه الكتب، على أية حال، نادرة وصعب جدا الحصول عليها، لأنه حتى هذا الوقت، كانت دراسة "عبادة الجنس" قد إنحصرت في فئة صغيرة من العلماء والمحقّقين، الذين كانوا يحرصون على حجبها عن الجمهور، نسبيا بضعة أعمال على هذا الموضوع؛ لذا فالطالب العامّ عنده فرصة ضئيلة أو معدومة لإحاطة نفسه علما بمفاجئات هذا الفرع المهم من فروع المعرفة.

لذا، فمن المأمول أن يثبت العمل الحالي إهتمام القُرّاء الواعين والأذكياء، ولمن كتب هذا العمل، وأنّه سيستقبل ويقدّر بالروح والأهمية التي يستحقها.

المؤلف.

واشنطن،
.1897

المحتويات.

المقدّمة.

ليس هناك موضوع أعظم أهمية وأخطر أثرا في تطور الجنس البشري من موضوع عبادة الجنس—تبجيل الأعضاء الجنسية المنتجة كرموز لقوى الطبيعة الخلاقة. أنها علامة لا تمحى إنطبعت على إعتقاداتنا، لغتنا ومؤسساتنا. إنها تشكّل قاعدة علم اللاهوت، وأساس ميثولوجيات جميع الأمم. إنها مصدر رموزنا الدينية الحالية وهندسة معمار كنيستنا، وأصل العديد من إحتفالاتنا المألوفة والمقدّسة. بإختصار، إنها أساس الإيمان والعبادة الدينية.

لم تنحصر عبادة الجنس، أو الفالوسية، في جنس واحد من أجناس البشر ولا في عصر معيّن في تاريخ العالم. إنها شكل شائع من أشكال العبادة عند كلّ الأمم الأولى التي سكنت المعمورة؛ عبادة ألهمت عالميا بظواهر الطبيعة بسرّها العظيم: الحياة والولادة.

وفي الوقت الذي واصلت فيه الفالوسية نضجها وتطورها على يد المصريين القدماء، والآشوريون، والهندوس، واليونانيون، والرومان، فإن برهان وجود هذا الشكل من أشكال الدين يُكتشف في كلّ جزء من الأرض سكنه البشر. بلاد فارس، الهند، سيلان، الصين، اليابان، بورما، جاوة، بلاد العرب، سوريا، آسيا الصغرى، مصر، إثيوبيا، أوروبا والجزر البريطانية، بالإضافة الى المكسيك، وأمريكا الوسطى، البيرو وأجزاء أخرى مختلفة من النصف الغربي للكرة الأرضية—كلّها تشير الى أدلة وفيرة مساندة لعالميّة العبادة القضيبية كشكل بدائي من أشكال الدين، والأصل المشترك للمذاهب اللاهوتية.

يجب ألا تعتقد، على أي حال، أن عبادة الجنس تلك كانت خاصة فقط بالعصور القديمة. فهى عبادة شائعة بين الشعوب البدائية في كلّ أجزاء العالم اليوم؛ وفي الهند، حيث وجد هذا الشكل من الدين بشكل مستمر لآلاف السنين، هناك في الوقت الحاضر أكثر من مائة مليون عابد حقيقي للفالوس (قضيب الرجل). وهناك قبائل، من بينها الزوفلي Zufli وهناك قبائل أمريكية شمالية أخرى تُدخِل الطقوس الفالوسية بشكل كبير فى مراسيمها الدينية، بينما سكان العديد من جزر المحيط الهادي وأجزاء مختلفة من أفريقيا هم أكثر المحبّين المتحمسين لعبادة الوضائف الجنسية—التكاثرية، ويزاولون دينهم بإسلوب واقعي وصريح لطبيعتهم البدائية.

في الوقت الذي قد يميل فيه كثيرون، ولا شك، للتشكيك في العلاقة بين المناسك الدينية والرموز المعاصرة، وتلك المستخدمة في العصور الغابرة للعبادة القضيبية،

تبقى حقيقة، رغم هذا—وتُحترم من قبل جميع طلاب علم الأجناس،—فتلك المؤسسات الدينية كما نراها اليوم ليست إلا نموا أو تعديل لطقوس دينية أخرى سبقتها، أو ببساطة هي إستمرار للأشكال القديمة، كُيِّفت لتتلائم مع المعاني أو الأغراض الجديدة. وهذا تصديق لكلّ سمات الحياة الإجتماعية، وحادث ضروري لتقدّم المجتمع وتطور العقل الإنساني.

في دراستنا للغة، على سبيل المثال، نجد حالات لا تعد يكون فيها المعنى الأساسي للكلمة أو الإسم قد عُدّل وغير بالكامل. وبمرور الزمن، يكون الجوهر الأصلي لمعنى الكلمة قد فقد قوته، فتتكيّف الكلمة لتأخذ معنى جديداً، لا يشبه مطلقا ما كانت عليه في باديء الأمر؛ كما هي حالة كلمة *idiot* "أبله" (إستشهادا بمثال واحد من ألف)، والتي، في أصلها اليوناني، كانت تعبيراً يستعمل لتمييز مواطن خاصّ عن مواطن آخر يعمل موظفا، وليس له علاقة بهذه المؤهلات العقلية.

بنفس الإسلوب، وصلتنا العديد من عاداتنا الإجتماعية خلال القرون، وإحتفظنا بها إمّا كمسألة عادة، أو أنها تلائم بعض الظروف الحالية، ومع ذلك، فمعناها الأصلي قد نُسى منذ فترة طويلة أو أصبح ملغيا. هذا يصوّر في عادة التصافح لدينا كنمط للتحيّة؛ وهي ممارسة بدأت منذ أن أصبح كلّ أنسان على إستعداد لذبح أبناء جلدته، ومتى أمكن إظهار حُسن النيّة والصداقة كان الرجل يقدم يده اليمنى لرجل آخر، مشيراً بذلك لنواياه السلمية خلال عدم قابليته لإستلال سيفه؛ وإلى يومنا هذا نواصل تقديم اليدّ اليمنى، لا اليسار، رغم أن إحساسنا بمغزى وسبب ذلك لم يعد موجودا.

وكذلك، فعادات الزواج الحالية لدينا، تحتمل ضرب مثال للعلاقة الموجود بين المؤسسات البدائية والحديثة المعاصرة، وتأثير وثبات المميزات الأساسية للكائن الحي الإجتماعي خلال جميع أحقاب نموه وتطوره. من المحتمل أن هناك قلة من الناس قد توقّفوا للسعى وراء السبب الأساسي للعديد من عادات الزواج عندنا—لماذا تستلم المرأة الهدايا قبل الزفاف؛ لماذا يذهب الرجل إلى بيت العروس دائما، والعروس يجب ألا تذهب أبدا إلى بيت العريس، لكي يتزوّجا؛ لماذا يحضر وكيل العريس بشخصية "الإشبين"، لماذا يحمل خاتما يضعه فى إصبع العروس، ولماذا يعجّل بالإنصراف في رحلة الزفاف.

هذه، والعديد من الحوادث الأخرى للزواج مألوفة لنا جداً، وأصبحت كثيرا في حكم العادة، ذلك أنّنا لا ندرك أنّ بهذه العادات إنما نكرر أفعال أسلافنا البدائيين والوحشيين في شكلها التقليدي، في تلك الأيام الأولى من المجتمع الإنساني عندما يجبر الرجل أمّا أن يأسر زوجته ويهرب معها (تذكرا للأيام التي كانت تتطلّب مساعدة صديق مؤتمن)، أو شرائها بالهدايا التي يقدمها لوحده وعائلته؛ لزوجة لم تكن أكثر من مجرّد قطعة أثاث منزلي، يقاتل من أجلها أو يشتريها؛ وعندما تمتلك

في نهاية الأمر، يكون رمز خضوعها خاتم (شارة العبوديّة)، يوضع في أحد أصابعها.

سيقدّر أولئك الذين إنتبهوا إلى نمو وأصل المؤسسات الإنسانية هذه الحقائق الإيضاحية على الفور، وسيعتبر تنويههم، ربما، إستطرادٌ غير ضروري. رغم أنّهم سيهتمّون بلا شك بإقناع القارئ العام بسهولة كبيرة بأن الكثير من السمات الخاصة بالمجتمع الإنساني، وببساطة شديدة، له أهمية سابقة وهي علي خلاف تام مع سمات يوم؛ لذلك، يجب أن لا تثبت المفاجئة أن العثور على ما قد يصدق في لغتنا وعاداتنا الإجتماعية، يصدق أيضا في لاهوتنا ورمزيّة كنيستنا؛ ذلك أن الكثير من تقاليدنا الدينية وشعاراتنا قد تسلمناها من ماضي سحيق، وببساطة كُيِّفت لتصبح معانٍ وأغراض تتماشى مع أفكارنا المعاصرة وظروفنا الإجتماعية.

في معرض الأشكال والطقوس المرتبطة بطبيعة العبادة في الحضارة المبكّرة، يجب أن يؤخذ في الاعتبار بشكل دائم أنّه، مهما بدت لنا هذه الأشكال والطقوس مفرطة أو سخيفة، فهي قد خدمت في وقتها غرضا واضحا ومعقولا—أن لا شيء يأتي إلى عالم الوجود ما لم يكن نتيجة أنه جدير بذلك. يجب أن لا ننسى أنّ اللغة المستخدمة بين أجناس البشر الأولى، كانت لغة رمزية بشكل كبير؛ ذلك أن الرجل البدائي كان مجبرا على اللجوء للأجسام الطبيعية الإيحائية—وتقريبه لرمزيتها التقليدية— كي تحمل أفكاره؛ ولذلك فالشمس، والقمر، والنجوم، واليوم والليل، والأشجار، والزهور، والحيوانات—باختصار، كلّ الظواهر الطبيعية وأشكال الحياة قد طلب منها الحصول على حاجاته لبعض الوسائل إظهارا لأفكاره وعواطفه. ولذلك، فالعديد من الأشياء والوظائف التي قد أعطيت معان قديما، نفشل اليوم في إدراك كنهها، بسبب إعتمادنا على لغة إصطلاحيّة ثابتة، ونفشل أيضا في رؤية أيّ شئ في أشكال ووظائف هذه الأشياء أبعد من أهميتها المباشرة والجوهرية.

ويجب ألا نقع فى الخطأ المتعلق بمناسك ورموز الفالوسية فى ضوء الإجحاف الحديث. وبينما تبدو على السطح أنها غير متوافقة وأفكارنا المعاصرة للحشمة والأدب، يجب أن لا يغفل أنّ المبادىء الأخلاقية والدين شروط نسبية تماما، وأنّ ما قد يعتبر غير ملائم البتة في وقت ما قد يكون ملائما ودينيا في وقت آخر. إنه لمن الضروري جدا التنويه للجميع، وخاصة لمن هم على معرفة سطحية بالتاريخ، أن مفاهيم الصواب والخطأ لدى البشر تتغيّر بشكل ثابت؛ ذلك أن معيار المبادىء الأخلاقية والدين كانا مختلفين في كلّ عصر من العصور؛ ففضيلة الأمس هي خطيئة اليوم، وأن الذي يعتبره جنس من أجناس البشر وقورا ومقدسا يزدريه جنس آخر ويدينه.

لكلّ عصر من العصور، ولكلّ أمة في تاريخ العالم نماذجه الخاصة من المبادىء الأخلاقية؛ وكلّ جنس وكلّ مجتمع اليوم له مفاهيمه المستقلة من الفضيلة والأصالة؛ وبينما كلّ مجموعة الناس مقتنعة بصواب معيارها الخاص للأخلاق، لا تتفق إثنان من هذه المعايير في كلّ التفاصيل. وبالعكس، فإن العديد منها تتعارض مباشرة أحدها مع الآخر.

من الملائم فحسب، في دراستنا العادات والإعتقادات لأيّ عصر معيّن أو جنس معيّن، أنّنا يجب أن نحيط أنفسنا علما بالظروف المحيطة والمؤثرة؛ بالوضع الإجتماعي والعقلي لهذا الجنس أو المجتمع، والنظر الى أناس تلك الأعراق والمجتمعات من وجهة نظر زمهنم وظروف وبيئة معيشتهم الخاصة، بدون أيّ إشارة لما ستكون عليه الأفكار أو الإعتقادات السائدة كنتيجة لشروط مختلفة كليّا.

عبّر الإنسان في حالة إجتماعية بدائية عمّا يدور في نفسه بحرية مساوية وغير متحفظة عن كلّ الظواهر الطبيعية والفسيولوجية التي هي ضمن إطار ملاحظته. ولم تقترح عليه التجربة لحدّ الآن أيّ ضرورة لإخفاء بعض الوظائف الجسمانية، أو ما يتعلق بشهوانيته كخصوصية تختلف جوهريا عن أيّ من رغباته الطبيعية الأخرى.

هذه مسألة معلومات عامة وملاحظات، ومثبتة كثيرا بالسجلات التاريخية وتاريخ البشرية؛ الدليل الموجود في الكتاب المقدس-العهد القديم يمكن أن يكون لوحده كاف لإقناع أي شخص بهذه الميزّة لظروف حياة المجتمعات البدائية. ليس لأننا فقط نجد أن كتّاب التاريخ المقدّس يشيرون بحرية وأريحية وبدون تأثّر إلى العديد من الأشياء التي تعتبر اليوم مخلّة بالآداب وفاحشة، أو أنها على الأقل غير ملائمة للنقاش العام، بل لأن الله بنفسه قد سجّل ذلك في كلامه عن هذه المواضيع مرات متكررة وبإسلوب معين كي لا يترك أي شكّ أنه لا شيء في طبيعتها أو عدم حشمتها قد جعلها في تلك الأيام الأولى غير جديرة بالإشارة حتى لقدسيتها.

هذه الخاصية في الكتابات الدينيّة مألوفة لدى كلّ قرّاء الكتاب المقدس، وأنها قد تُثبت حتى أهمية وقوة عظيمة وفي الحقيقة أنّ العديد من الكلمات والتعابير العبرية قد عُدّلت أثناء ترجمتها من النصوص الأصلية، حيث تظهر بصراحة ومباشرة معنى غير متوافق جدا مع الأفكار الحديثة للنقاء، والتي لا تستطيع إرضاء أكثر الناس شكّا، وهي أمور متخصّصة بالوظائف المنتجة وبالأجناس التي نوقشت سابقا بإلمام مثالي وصراحة، دون التفكير بعدم لياقتها أو وقاحتها.

لكن، بعيدا عن كلّ الإعتبارات الأخلاقية الأخرى، من الضروري فقط التذكير بأن الدين، في أيّ صورة قد يظهر بها، إنما هو دوما يمثّل أرقى وأصفى الأفكار البشرية، وأنّه لن يُقدِم أحد متعمدا على إدخال أيّ شيء لعباداته الدينية هي في رأيه أشياء نجسة أو فاحشة. فإذا إنحطت العبادة القضيبية أحيانا لتصبح فسقا وفجورا

وممارسات غير لائقة أخرى، فليس من المعقول بهذا الشأن التشكيك في طهارتها ونقاوتها المتأصّلة، أكثر من السخرية من المسيحية، بسبب العديد من الذنوب التي إرتكبت بإسمها على يد أولئك الذين إغتصبوا الدين لأغراض سيئة وأنانية.

لذا، مهما تكن عبادة الجنس سخيفة أو غير معقولة بالنسبة لنا اليوم، دعونا لا ننسي بأنّها كانت دين الإنسان في فجر الحضارة؛ وأنّها تمثّل مرحلة في تطور العقل البشري، وأن أعظم علوم لاهوت اليوم هي نتيجة لهذا النمط البدائي للعبادة؛ وأنّها تشكّل قاعدة لكلّ ما هو مقدّس ومبجّل وجميل.

الفصل الأول

أساسُ الدِّين.

إنّ الدافع المحرك لكافة أشكال الحياة العضوية هي الغريزة الجنسية. هي ما تقع تحت بند "الكفاح من أجل الوجود في العالم الحيواني"، وهي محرك كلّ المساعى والعواطف الإنسانية.

تلك الصلة التي تجذب الجنسين (الذكر والأنثى) سوية، لغرض الإتّحاد وإنتاج كائن جديد—تلك الغريزة المهيمنة—هي العامل الأقوى بين كلّ ما يخصّ الجنس البشري، وكانت دائما أكثر أهداف وغايات البشر سموّا.

في زمننا هذا، عندما نتفادى تناول الأمور التي تخصّ الجنس بشكل عام، ونعلّم أن الشهوة الجنسية هي شهوة حيوانية، يجب إخضاعها وإخفائها، كونها غير جديرة بطبيعة الإنسان المتحضّرة، ليس من المفاجئ أن الغالبية العظمى للناس لا ترى الأهمية الكبيرة والعظيمة للطبيعة الجنسية في علاقتها بشؤون العالم، فهم يخفقون في إدراك أن الجنس هو ليس فقط سبب وجودنا كأشخاص، بل أنّه البنية التحتية للمجتمع وربيع الحياة والسعادة الإنسانية.

ليس هدفنا هنا الدخول في مناقشة السمات الفسيولوجية للموضوع، لتبين العلاقة العميقة والمستحيل تجنبها بين العقل والغريزة الجنسية؛ لكن يكفي قول، أن حرمان الإنسان من هذه الغريزة لا يؤدّي إلى زوال جنسنا فقط (ستكون ولادة أفراد جديدة مستحيلة في غياب هذه الرغبة الدافعة)، لكن كلّ الطموح والسعى والمودّة، وكلّ الشعر والفن والدين—بإختصار، كل المشاعر والإنجازات المُلْهَمة بما نطلق عليه مصطلح **الحب** ستُخنق، وسيصبح العالم باردا وبلا مشاعر؛ يفتقر للشعور أو التطلّع، مجردٌ من أيّ حافز أو طاقة للتقدّم، كما تفتقر ماكينات المجتمعات الإنسانية المعقّدة والتبادلية لقوتها الحافزة، التي قد تتوقّف وتنهار بتشوش يائس.

من المعترف به عالميا أنّ الحبّ هو الروح المنعشة للعالم؛ وما الحبّ إلا تعبير عن الغريزة الجنسية؟ الرجل المتحضّر، الذي يشجع غاية مودّته من خلال الشعر الملهم والنعم العاطفية الأخرى، الذي يكشف شوق قلبه باللغة ويصل حالا صاف، نقّي وحنون، والذي يكبح غريزته الشهوانية في مشاعره، يُحرّك، على الرغم من

هذا بواسطة نفس الدافع تماما كالدافع الذي يقود البربري لإظهار رغباته الخشنة والوحشية نحو الجنس الآخر. فكلّ منهما لا يقدم إلا تعبيرا، بموجب طبيعته الفردية وظروفه الإجتماعية، لنفس الشعور، ونفس الإندفاع. ففي الحالة الأولى، نحن نعترف بهذا الشعور على أنه حبّ؛ أما الحالة الآخرى، فهي شهوانية؛ رغم أن كليهما ينبعان من نفس المصدر؛ وكلاهما يحرّكان بنفس الغريزة.

مهما تردّد من قول قد يكون إعتراف بهذه الحقيقة الطبيعية، إلا أن الحقيقة المؤسفة التي علّمناها هي أن ننظر للطبيعة المنتجة على أنها تنحصر وحسب ضمن الحدود الضيّقة لإبراز المشاعر الحسية الصافية، كالرغبة في الجماع والإرضاء الحيواني المجرّد؛ وبالتالي، فإننا نفشل في إدراكه في شكله الأسمى والأنبل والعام وتمييزه عن الحبّ. لكننا ننظر إليه في شكله الواسع والحقيقي، والغير مقيّد بالتعاريف الإعتباطية، ونحن مجبرون لقبول أهميته الحيوية كعامل أسمى في حياة ورفاهية الجنس البشري.

مُجّد الحبّ ويمجّد دائما وأبدا، كقوّة مجرّدة، وهو مضرب المثل، لأننا نرى فيه مصدر وإلهام كلّ فضائل الجمال والأخلاق والسموّ؛ المحفز على الأعمال السامية والنبيلة؛ وهو روح البشر الرافعة والمسيطرة. فكلّ شاعر، وفنان، وملحن—وكلّ موهوب بقدرة التعبير الصادق عن المشاعر والعواطف البشرية الأسمى، قد وجد إلهامه في الموضوع الحبّ الذي لا ينضب معينه؛ فلا توجد لغة، ولا تعبير، لم يعتبر أبدا سامي جدا، ويلمس شغاف القلب، لم يصور هذه العاطفة العالمية والمهيمنة.

في تمثيلنا للحبّ نرتفع به الى ما بعد حدود التقييدات الدنيوية، ولا نتردّد أن ننسب إليه شخصية مقدسة، ونعتنقه بأسمى وأقدس جو للإنسان المثقف—الدين. كلا، فنحن لا نرفعه إلى أعلى نقطة يمكن بلوغها بالعقل البشري، عندما نهتف بوقار، "الله هو الحبّ!"—عندما نركع ونعبده كجوهر مقدس، العلي القوي؟

ليس من ضمن أهداف هذا العمل محاولة تقديم تحليل شامل للحبّ، أو الجنس، في علاقته المعقّدة بهذه المراحل العليا والغير ملحوظة للفكر والتصرّف الإنساني؛ لكن قيل ما يكفي للإشارة إلى أن الروح المنعشة المحفزة للعقل الإنساني—المبدأ الأساسي لعواطفه السامية والمقدّسة،— وهي القوّة الروحية للغريزة الجنسية؛ التي ينضوي تحتها هذا الإندفاع في أساس كلّ فكرة وعمل، وتجد تعبيرها الأعظم والأكثر سموا في الدين.

الحبّ هو أساس ومبدأ الدين؛ بداية ونهاية الفكر والتطلّع الإنساني. تنبع العاطفة الدينية من القوّة المحركة للطبيعة الجنسية، ومن خلال العاطفة التي نميناها إستطعنا أن نؤلّه ونعبد المصدر الإلهامي لشوقنا الروحي. الحبّ، بكلّ إحساس، مادي وروحي، موضوعي ومثالي، هو القوة المبدعة والمنعشة والمحركة للعالم؛

المقدس اللازم للكون؛ المصدر المحفز للحياة، والروح المبدعة للنفس؛ البداية والنهاية لكلّ ذلك.

لم تكن النية، على أية حال، أن نبرهن أن أساس العبادة الدينية سيستند فقط على التحليل الفسيولوجي، سواء أكان كاملا أو إيضاحيا، لكن سجلات التاريخ الإنساني تلك ستشهد على حقيقة أن علم اللاهوت قد نبع من الإندفاع المنعش للحياة، وأنّ هدفه الأساسي والعالمي، هو عبادة سبب هذا الإلهام؛ عبادة لغز الحياة، الخلق وإعادة الإنتاج؛ عبادة القوّة المبدعة القديرة.

من بين كلّ ظواهر الطبيعة لم يثر شيء أثار دائما بقوة إعجاب وتوقير البشرية أكثر معجزة الولادة—إنتقال الحياة من جيل إلى آخر. في جميع الأوقات وفي كل الإتجاهات نحن نرى الطبيعة وقد إنشغلت في عملها الدؤوب لإعادة الإنتاج؛ ورغم ذلك فلغز تلك القوّة المبدعة المدهشة، التي تسبّب إنبات نبات من بذرة صغيرة جدا، وتجلب طفلا—مخلوق جديد—إلى العالم، هي اليوم بنفس العمق والإلهام كما كانت عليه في عقل الإنسان منذ أوائل فجر تاريخ العالم.

أحد أوائل الأسئلة التي شغلت الفكر الإنساني هي تلك التي تختص بالخلق. من أين نأتي؟ كيف تنتج الحياة؟ من يأتي بالكائنات الجديدة إلى هذا العالم؟ هذه الأسئلة الطبيعية والبريئة التي حيّرت عقل كلّ طفل؛ أسئلة سئلها البشر منذ زمن سحيق، فألهمت إيمانا تجاوب مع وجود قوّة مبدعة أبديّة وقوية؛ إيمان شائع عند كلّ سكان المعمورة، والذي يشكّل الحقيقة المركزية والأساسية لكلّ المعتقدات الدينية.

من الواضح لكلّ شخص كانت له فرصة دراسة الموضوع، أن كلّ الأديان كان لها أصل مشترك، وأنه مهما كثرت فهي قد تختلف في تعاليمها ومؤسساتها، ولكنها تمثّل طرق مختلفة لعبادة نفس الشيء. براهما، يهوه، God، الله وغيرهم المئات، هي ببساطة أسماء مختلفة لنفس الإله، لأنه ينظر له من زوايا مختلفة؛ وهذا الإله، هذا المعبود العالمي، هي القوّة المبدعة العليا.

عندما عرض سفير من المحكمة الفرنسية أمام ملك سيام البوذي طلب لويس الرّابع عشر أنّ يعتنق المسيحية، أجاب: "من الغريب أن ملك فرنسا يشغل نفسه جدا في مسألة تهم الله وحده، بينما هو جل وعلى الذي يهمه الأمر يبدو أنه قد تركه كلية لتقديرنا نحن. أكان من المتفق للخالق أن يجعل كلّ الأمم تدين بنفس شكل العبادة، ألم يكن من السهل عليه بقدرته الكلية أن يخلق كلّ البشر بنفس المشاعر والترتيبات، وأن يلهمهم نفس وحي الدين الحق، بدل أن يهبهم مثل هذا الأمزجة والميول المختلفة؟ ألسنا بالحرى أن نؤمن بأن الله الحقيقي يشعر بنفس القدر من السرور في أن يكون مبجلا بعدة أشكال ومراسيم، مثلما أنه يُحمد ويُمجّد بعدد مخلوقاته المختلفة؟"

"حتى أؤلئك الذين يعبدون آلهة أخرى،" يقول كريشنا، الإله المجسّد، في قصيدة هندوسية قديمة، "هم يعبدونني رغم أنّهم يعرفون أنّه ليس كذلك."

تجسّد هذه التعابير تعليمات الفلسفة العليا للأديان البوذية والهندوسية، والتي تميّز المصدر والدافع الصادق لكلّ المعتقدات الدينية. طبقا لهم ليس هناك إلا دين واحد؛ حقيقة أبدية عليا واحدة؛ وما يسمّى بالأديان المختلفة للعالم هي ليست إلا أنماط مختلفة لإظهار وعرض هذه الحقيقة الأبديّة.

لا يمكن لشخصان وثيقا الصلة بالولادة والظروف، على أية حال، أن يبصرا نفس الجسم بنفس الضوء بالضبط أبدا. لذا، على أقل تقدير، أيمكننا أن نتوقّع أمما منفصلة جدا، وتعيش تحت ظروف مختلفة بالكامل، أن تتقمص إحداها الآخرى في وجهات النظر والعادات وأن تنشيء أنظمة حكومية كنسية ومبادىء أخلاقية مماثلة. كلّ منها تنشيء نسيجها الإجتماعي واللاهوتي الخاص بها بموجب أفكارها وحاجاتها؛ كلّ منها تنشيء شكلا من الدين يناسب ظروفها، وحالتها العقلية والطبيعية. كلّ مخلوق، وكلّ جنس، وكلّ عصر، له شكل من أشكال الدين ينسجم مع حالته الفردية وضروراته. فالبربريون لن يدركوا مفهومنا المجرّد الغير المشخص لذات الله، رغم أننا نفهم تبجيله للإله العلي على شكل معبود خشبي؛ إلا أن كلانا، نحن والبربريين، نعبد الشيء ذاته بشكل مماثل، ويحركنا نفس الدافع.

تصبح هذه الحقائق ظاهرة بدرجة أكبر عندما نلاحظ كم هو عظيم تنوع المعتقد والممارسة بين أناس من نفس المجتمع وعلى نفس الدين. ألا نرى أن المسيحية قد تفرّعت إلى عدد من الطوائف والمذاهب، كلّ منها يري الدين نفسه بطريقة مختلفة؟ وألا ندرك أنّ فكرة الله تخضع لعدد من التفسيرات؟

كلّ مسيحي، متوافقا مع الرأي اللاهوتي العامّ، له مفهومه الفردي الخاص عن الله؛ والذي يصدق على الأفراد يصدق بنفس النمط أيضا على الطوائف والمذاهب من أجيال وفترات مختلفة في تاريخ المسيحية. إنّ الشخصية والخواص المنسوبة إلى الإله اليوم، وأبدا كانت، مختلفة ومتعارضة مثل الآراء والمشاعر البشرية. كلّ فكرة أمرء عن الله معتمدة على طبيعته الشخصية، وتعليمه وظروفه الإجتماعية. وبما أن الفكر والترتيب قد صُفّى، كذلك أصبح مفهوم الخالق الأعظم أكثر روحية وأكثر سموا، أكثر خصوصية، وأكثر إرتباطا وقربا مع المرء نفسه، حتى نصل الى مفهوم التشبيه[2]، الذي يعتبر الله ببساطة شديدة كأنه إنسان عادي، يمنح نفس المشاعر والعواطف التي تحرّك مخلوقاته، ويقاد بنفس العواطف والإنفعالات؛ كما نراه مصوّرا في أوصاف العهد القديم للإله يهوه التوراتي.

بينما يهوه وإله المسيحية هما نفس الإله، هناك من المحتمل أن بعض المسيحيين اليوم يحملون مفهوما للخالق يتوافق وذلك المفهوم الذي تأثر بالإسرائيليين؛ لذلك،

[2] التشبيه أو التجسيم anthropomorphism: خلع الصفات البشرية على الله

وفي الحقيقة، أنه لا يمثل توافقا مع الدين الحالي للحبّ والسلام، لكنه، على العكس، هو ذلك الإله الحقود سفاك الدماء؛ الإله الذي يسهل إغضابه، والذي لا يتردّد في جلد وذبح أولئك الذين يعارضونه؛ يحطم في المرة الواحدة عددا يبلغ خمسين ألف، في نوبة مفاجئة من الإستياء والتذمر، ويأمر الإسرائيليين بشكل دائم بشنّ حرب ضدّ أعدائهم وتخريب مدنهم وأراضيهم؛ ويصيب بالطواعين، والوباء والمجاعات أولئك الذين يغضبوه، ويهدّدون شعبه المختار ويلحق اللعنات المخيفة والعقوبات القاسية بالذين لا يخضعون لطاعته: "مَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْمَدِينَةِ وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي الْحَقْلِ .. مَلْعُونًا تَكُونُ فِي دُخُولِكَ، وَمَلْعُونًا تَكُونُ فِي خُرُوجِكَ .. يُرْسِلُ الرَّبُّ عَلَيْكَ اللَّعْنَ وَالاضْطِرَابَ .. يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِقُرْحَةِ مِصْرَ وَبِالْبَوَاسِيرِ وَالْجَرَبِ وَالْحِكَّةِ حَتَّى لاَ تَسْتَطِيعَ الشِّفَاءَ .. وَيَرُدُّ عَلَيْكَ جَمِيعَ أَدْوَاءِ مِصْرَ الَّتِي فَزِعْتَ مِنْهَا، فَتَلْتَصِقُ بِكَ. أَيْضًا كُلُّ مَرَضٍ وَكُلُّ ضَرْبَةٍ لَمْ تُكْتَبْ فِي سِفْرِ النَّامُوسِ هذَا، يُسَلِّطُهُ الرَّبُّ عَلَيْكَ حَتَّى تَهْلَكَ."[3] هذه اللعنات وغيرها الكثير عُدِّدت لرد سبّ الله الموجه ضدّ الإسرائيليين، كما ورد في الاصحاح الثامن والعشرون من سفر التثنية.

لذلك، عندنا هنا، في تاريخنا اللاهوتي الخاص، مثال صارخ لما قيل بخصوص الأفكار والطلبات المتباينة من نفس الإله،—كلّ عصر، كلّ جنس، كلّ طائفة ومذهب سيكون لها مفهومها الخاص عن الله، بما يتوافق مع المنزلة الإجتماعية والثقافية لكل عصر وجنس وطائفة.

عندما نتتبّع تطور ونمو الحضارة المسيحية خلال القرون الماضية، نجد أن الأفكار والعادات الدينية، على غرار فكرة الله، تتغيّر بشكل ثابت، وما ندعوها بالمسيحية كانت قد إعتنقت كلّ إختلاف ممكن في الأفكار والتصرّفات؛ وقد أدت دورها كسلطة للممارسات والمؤسسات، وأدينت في وقت لاحق بنفس السلطة. إزدهرت محاكم التفتيش باسم الدين نفسه؛ وشنت الحملات الصليبية الباسلة تحت راياته؛ فملأت العالم ظلاما وبؤسا، وكانت ضوء مشعل الأمل والخلاص— الإعلان المجيد للبهجة والحريّة.

لكن، بالرغم من هذه التغييرات والتناقضات العجيبة، من سيقول أنّ المسيحية نفسها قد تغيّرت؛ وأن الأسس التي ترتكز عليها قد هُزّت؟ لم تتغير أسس المذاهب والحقائق؛ لكنها بل ببساطة عُدّلت وكُيّفت للمراحل المختلفة في تطور المجتمع الإنساني، والتي تظهر مرة في شكل، ومرة أخرى في شكل آخر، بشكل متناسق مع التطور الإجتماعي والعقلي للجنس البشري.

لذلك، فنحن نجد أيضا أن العديد من المعالم الرئيسية للمسيحية هي ببساطة تعديلات أو تكيّف لتلك التي نجدها في الأشكال الأقدم من الدين. فنحن نعرف أنه قبل السيد المسيح بزمن طويل، عبد البشر الله بشكل إله ثالوث. فالهندوس يعبدون:

---

[3] سفر التثنية 28: 16-61

براهما، فشنو وشيفا—الخالق والحافظ والناسخ، أو الروح القدس، الذي كانت الحمامة شعاره. والآشوريون، أيضا عبدوا ثالوثا، كما فعل أيضا الفُرس القدماء، والمصريون، والفينيقيون، والإسكندنافيون والكلدانيون والرومان. في الحقيقة، لقد عبد الخالق الأعظم من قبل كلّ الأمم المبكّرة تقريبا كإله ثالوثي—ثلاثة في واحد.

إنّ أسطورة الخلق وسقوط الإنسان، هي على السواء، نمط شائع عند كلّ المعتقدات القديمة الرئيسية. في بعض السجلات، ككتاب الفرس الزند-أفيستا، وفيدا الهندوس، هذه الأسطورة تحمل تشابها رائعا في العديد من تفاصيلها لتلك التي في متن التوراة. لقد وجدت إسطوانات آشورية قديمة، تسجّل تصويريا إغواء وسقوط الإنسان (آدم في القصة التوراتية)، وفي المتحف البريطاني هناك نقوش مسمارية تبين بشكل حاسم أنّ البابليين كانت عندهم هذه الأسطورة قبل ألف وخمسمائة سنة أو أكثر من تاريخ تدوين سفر التكوين.

الإيمان بالمُنقذ المُخلّص، إبن الله، الذي ولد من عذراء، مات من أجل خلاص البشر، وقام ثانية من الموت، يعود الى قرون وحتى آلاف السنين قبل العصر المسيحي، كما نراه في أديان مصر، والصين، والهند، والمكسيك والأمم القديمة الأخرى. لقد عبد الهندوس معزيهم، كريشنا، المولود من عذراء قبل مولد المسيح بألف سنة؛ يسردون قصص معجزاته الرائعة، يتبعون تعاليمه الصالحة، ويدعونه البعث والحياة، الراعي الصالح، ونور العالم.

ولد بوذا، إبن الرب، مؤسس الدين الذي يعدّ أتباعه اليوم الأكثر عددا من أيّ دين آخر في العالم، من عذراء، جاء إلى الأرض ومات من أجل إفتداء البشرية، خمسمائة سنة تقريبا قبل زمن المسيح؛ بينما حورس، المنقذ المصري، وطبقا للتقليد، عاش قبل حوالي ستّة ألف سنة. لمدة طويلة قبل إكتشاف كولومبوس لأمريكا، عبد المكسيكيون مخلصهم كويتزالكوتل Quetzalcoatl، الذي ولد من سوتشيكويتزال Sochiquetzal، عذراء طاهرة، إختارها الله لتكون أمّ إبنه الوليد الوحيد.

باختصار، نجد أن المعتقدات الدينية الأساسية للعالم قد ظلت بدون تغيير منذ الأزل، وعلى أية حال كان التنوّع والتناقض هي علومهم اللاهوتية رفيعة الشأن، والتي خضعت للإختلافات الخارجية والطقوسية للمعتقدات البشرية المختلفة، في كافة أنحاء العالم وفي كافة عصور التاريخ الإنساني، ووجدت أنها نفس الأساطير ونفس الإعتقادات؛ كلّها تشير إلى أصل مشترك، إلى أساس عالمي—عبادة الطبيعة في لغزها العظيم للحياة؛ عبادة القوّة المبدعة العليا.

|

عبادة الجنس

الفصل الثاني

الخالق.

كما ذكر في الفصل السابق، ظاهرة الولادة كانت أبدا مصدر الإهتمام الأعمق والفضول والوقار، وقد نتخيّل بسهولة كيف تركت هذه الظاهرة بصمتها المباشرة والقوية على عقل الإنسان في تلك الأيام الأولى من تطوره الإجتماعي، عندما كان أكثر قربا وإعتمادا على الطبيعة منه اليوم، وعندما ألزمته ضروريات ظروفه مراقبة كلّ الظواهر بحماسة.

في طفولة الإنسان العقلية، كانت ظواهر الطبيعة غير واضحة؛ لكن بتلك الغريزة التي ما زالت متأصّلة في الجنس البشري، كافح بعقله المحدود لإدراك اللامحدود، وفي مسعاه لفهم قوى وعجائب الكون، كساهم بتصوير عقله الجاهل، فبدت له كيانات حيّة مثله؛ تجسيد لأحاسيسه ورغباته؛ تصوير لكائنات خارقة، كان يعتمد عليها في وجوده وسعادته.

لم يتعلّم الإنسان، بشكل طبيعي، إحترام ذلك الشيء الذي يمنحه السرور الأعظم والسلعة الأغلى فحسب، بل الذي يظهر له على أنه الشيء الأقوى والأكثر غموضا، وهكذا بدأ ينظر للقوّة المنتجة على أنها أرفع شأناً من سواها. كان فعل الخلق هو سروره الأعظم الذي لا يقارن، وإنجاب الثمرة الأروع والأغلى ثمنا ــــ مخلوق جديد يشبهه. بالتأكيد، لم يكن ضمن مدى ملاحظته وتجربته، شيء في الطبيعة أكثر غموضا، أكثر فعّالية، أكثر إثارة وإلهاما؛ أكثر إخضاعا في علاماته، وأكثر روعة بشكل غير قابل للتوضيح في نتائجه؛ صامت وخفي في عملياته؛ قدير وعليّ في قوّته وإمكانياته.

كان الإنطباع الأول للإنسان هو إفتراض أنّ الفعل السابق مباشرة هو سبب النتيجة اللاحقة له فورا، وكان من الطبيعي فقط في باديء الأمر أنه كان يجب على الرجل أن يعتبر عضوه الرجولي هو السبب المباشر والوحيد لسروره ونسله؛ فقد كان من خلاله تنجز أعظم الأشياء في الطبيعة،ــــآلة رائعة وفعّالة، تعد على ما يبدو بحياة وحيوية مستقلة، وتمتلك قوّة تتجاوز كلّ القوى الأخرى عظمة وإعجازا.

لقد تطلّب الأمر وقت طويل للبشرية لبلوغ تلك المرحلة التي أصبح فيها العقل قادرا على صياغة وإدراك الأفكار المجرّدة؛ ولربط خواص ونوعيات من الأجسام

التي تظهر فيها؛ ولفهم قوّة أو عاطفة بدون أي رمز إيحائي ملموس؛ ولذا، فقد أعتبر عضو التوليد الذكري، **الفالوس** (أو **القضيب**)، المصدر المجسّد للوجود، —كتجسيد للقوّة المبدعة،—وقد أحترم وبُجّل وعُبد كمؤلف ومبدع للحياة.

بموجب الغرائز الإنسانية، وإنجذابا للرهبة والإعجاب، رُفع هذا العضو الرائع والفعّال لدرجة عليا وعُبد، ليس فقط كخالق للحياة الإنسانية، بل كتجسيد أو رمز لخالق العالم؛ وعلى غرار كلّ المظاهر الطبيعية الأخرى، ألّهت القوة المبدعة؛ فقد نسبت إلى شخصية خارقة فوق طاقة البشر، إله قدير، الخالق، الآبّ، لكلّ الأشياء، ولذلك فهو الإله الأعلى. كانت قوّته عظيمة بالضرورة؛ وهو الذي تحكم بالحياة والولادة، وكان القضيب تجسيدا لقوّته في إنجاز هدف الحياة العظيم.

عندما ننظر للأهمية الحيوية المرتبطة بإنجاب الأطفال، في العصور القديمة، يمكننا بسهولة أكثر أن نفهم التبجيل الذي أدّوه لعضو التوليد كخالق لهم؛ كوسيط مقدس تحقق به واجب حياة الرجل والمرأة. ولم يكن العقم مجرد مأساة فقط، بل كان لعنة. أن تكون المرأة بدون أطفال كان أسوأ من الموت. كان حمل وإنجاب الأطفال وإدامة البذرة البشرية واجبا دينيا مقدسا عند كلّ إمرأة، وكان في نفس الوقت الطموح الأسمى لكلّ رجل هو إنجاب الأبناء والبنات. وفي هذا الشأن لدينا دليل كافي في الكتب المقدّسة وفي السجلات القديمة الأخرى.

قيل لنا، على سبيل المثال، كيف أن إبراهيم وساره إحترقا شوقا لإنجاب طفل، وكيف أنهما وصلا لحدّهما الأقصى: " فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الْوِلاَدَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ». فَسَمِعَ أَبْرَامُ لِقَوْلِ سَارَايَ" (تكوين 16: 2).

كذلك، في الإصحاح الثلاثون لسفر التكوين أيضا، قرأنا عن يأس راحيل (إمرأة يعقوب وإبنة خاله لابان) من عقمها—"فَلَمَّا رَأَتْ رَاحِيلُ أَنَّهَا لَمْ تَلِدْ لِيَعْقُوبَ، غَارَتْ رَاحِيلُ مِنْ أُخْتِهَا، وَقَالَتْ لِيَعْقُوبَ: «هَبْ لِي بَنِينَ، وَإِلاَّ فَأَنَا أَمُوتُ!»." وقالت أيضا، كآخر كلام، أنها تعطى خادمتها لزوجها، لكي يخفف هذا إلى حدّ ما مأساتها. وكذلك، نعلم من الإصحاح الأول لسفر صموئيل الأول، البؤس الذي إحتملته حَنَّة، "لأَنَّ الرَّبَّ أَغْلَقَ رَحِمَهَا .. وَهِيَ مُرَّةُ النَّفْسِ .. فَصَلَّتْ إِلَى الرَّبِّ، وَبَكَتْ بُكَاءً".

أن تموت المرأة عذراء، مثلما أُرغمت إبنة يَفْتَاح[4] على ذلك، وفاءً لنذر أبيها، الطائش،—أن تموت بدون أن تحمل الأطفال،—كان عقابا قاسيا فضيعا ولعنة في نظر العالم القديم. لكن بدل الإذعان لمثل هذا المصير، تلجأ النساء للخداع والخيانة

[4] قصته في سفر القضاة، ملخصها: أن يفتاح بن جلعاد تزعم اسرائيلي جلعاد في حربهم ضد بني عمون، فنذر أنه إذا إنتصر في هذه الحرب سيقدم أول من يلاقيه في عودته قربانا للرب يهوه (كانت هذه عادة المنتصر، وهي ليست من الشرائع الموسوية)، وكانت إبنته هي من لاقته بالدفوف مع صويحباتها، فأخبرها أبوها بالنذر. ذهبت البنت للجبل تبكى على عذراويتها التي ستذهب هدرا شهرين، عادت بعدها لوفاء النذر (قضاة 11: 34-39).

والجريمة، كمبرّر في هذه الظروف؛ كما نرى في حالة ثامار، التي خدعت عمّها،[5] وفي قصّة بنتي لوط، اللتان إرتكبتا سفاح القربى مع أبيهما،[6] بينما كانوا يسكنون منعزلين في الجبل، لأن "أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ"،[7] وطبقا للرواية التوراتية، كما قصت في الإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين، فإن الأختين قد أنجزتا هدفهما بالإحتيال والخطط الإستراتيجية.

باختصار، كان إنجاب الأطفال هو الهدف الأعلى والأقدس في الحياة، والغرض الوحيد للوجود الإنساني؛ إعتقادٌ قديم عُرض بوفرة في العهد القديم، ومشهور جدا، كالأمثلة المحددة التي أشرنا اليها هنا.

من الطبيعي، أن نظرت المرأة، والرجل أيضا، للخالق كمصدر أعلى للسعادة والراحة الدنيوية. فمن خلاله وحده تُنال أعظم البركات ويُنجز هدف الحياة؛ وقد كان الخالق بالنسبة للرجل، هو أن تصلّي المرأة من أجل الأطفال، كما تصلى المرأة اليوم لله لأجل بركة مماثلة. لكن بالنسبة لإمرأة من الماضي، لم يكن الخالق كينونة مجردة، غير مشخصة وغير معرّفة. بالنسبة لها: كان حقيقة كبيرة، موجود لهدف معيّن وواضح المعالم؛ مرتبط مباشرة وبشكل مؤكد بهدف صلاواتها. كان هدفها متعلّق مباشرة وشخصيا بفعل التوالد، الهدف الوحيد والأسمى الذي من أجله خلق البشر للعالم. لقد كان الخالق بنفسه هو الذي جاء إليها، بواسطة الرجل. لقد كان الفالوس (القضيب) هو شخصية الخالق القدسية، وهو حضوره الفعلي في الشكل المادي والنشاط الفعّال.

كانت هذه هي الفكرة التي أدّاها الخالق في العصور القديمة، وهي مبينة بمثل هذه التعابير كما نجد، مثلا، في الإصحاح الحادي والعشرون من سفر التكوين (ما يتعلّق بالحمل بإسحق وولادته): "وَافْتَقَدَ الرَّبُّ سَارَةَ كَمَا قَالَ، وَفَعَلَ الرَّبُّ لِسَارَةَ كَمَا تَكَلَّمَ. فَحَبِلَتْ سَارَةُ وَوَلَدَتْ لإِبْرَاهِيمَ ابْنًا فِي شَيْخُوخَتِهِ".

وقيل لنا أيضا، "وَذَكَرَ اللهُ رَاحِيلَ، وَسَمِعَ لَهَا اللهُ وَفَتَحَ رَحِمَهَا" (تكوين 30: 22)، ومجددا، نقرأ: "وَلَمَّا افْتَقَدَ الرَّبُّ حَنَّةَ حَبِلَتْ وَوَلَدَتْ ثَلاَثَةَ بَنِينَ وَبِنْتَيْنِ" (صموئيل الأول 2: 21).

لقد أعتبر الزوج ببساطة آلة الرّب، أظهر بشكل ملحوظ جداً في الحقيقة ذات العلاقة، أن يعقوب إستاء من رجاء زوجته إنجاب الأطفال: "فَحَمِيَ غَضَبُ يَعْقُوبَ عَلَى رَاحِيلَ وَقَالَ: «أَلَعَلِّي مَكَانَ اللهِ الَّذِي مَنَعَ عَنْكِ ثَمْرَةَ الْبَطْنِ؟»"(تكوين 30: 2)

من الواضح، أن فكرة الخالق قد إرتبطت مباشرة باسمه بشكل محدّد. حيث كان القضيب أكثر شعاره أو رمزه الأكثر تقديساً، وطبقا لكلام العهد القديم، يتبين بشكل

---

[5] سفر التكوين 38: 13-26

[6] تنسب التوراة تهمة زني المحارم للنبي لوط مع ابنتيه بعيد خراب سدوم وعمورة، حيث سقت الأختان الشيخ "خمرا" فسكر وأنجبتا منه ولدين هما مؤاب ابن البكر، وبن عمِّي ابن الصغرى، وكان هذا هو هدفهما: الإنجاب

[7] سفر التكوين 19: 30-36

واضح أنّ إله العبرانيين نفسه قد إحترم الفالوس؛ لأنه أمر بضرورة وضع علامة خاصة عليه، ويجب أن تشكّل هذه "رسالة السيطرة المقدّسة" للعقد بين يهوه نفسه وشعبه المختار، وإلى يومنا هذا يقوم اليهود بمنسك الختان، تنفيذا لأمر يهوه لخليله إبراهيم، أب الإسرائيليين، منذ ألف وتسعمائة سنة قبل الميلاد: "وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيم: .. هذَا هُوَ عَهْدِي الَّذِي تَحْفَظُونَهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ: يُخْتَنُ مِنْكُمْ كُلُّ ذَكَرٍ، فَتُخْتَنُونَ فِي لَحْمِ غُرْلَتِكُمْ، فَيَكُونُ عَلاَمَةَ عَهْدٍ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. يُخْتَنُ خِتَانًا وَلِيدُ بَيْتِكَ وَالْمُبْتَاعُ بِفِضَّتِكَ، فَيَكُونُ عَهْدِي فِي لَحْمِكُمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا" (تكوين 17: 10-13)

قال الرب ليوشع في الإصحاح الخامس من سفر يوشع: "اصْنَعْ لِنَفْسِكَ سَكَاكِينَ مِنْ صَوَّانٍ، وَعُدْ فَاخْتُنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ثَانِيَةً" وعندما إختتن كلّ الشعب، "الْيَوْمَ قَدْ دَحْرَجْتُ عَنْكُمْ عَارَ مِصْرَ".

من هذا، يظهر أن الختان لم يكن رسالة سيطرة مقدسة فحسب، بل كان أيضا عهدا للخلاص، والأهمية السامية له والمرتبطة بالله مثبتة بعدد كبير من نصوص التوراة؛ كونه واضح البيان بقوة، كما جاء في الإصحاح الرابع من سفر الخروج، حيث كان الرب على وشك أن يُهلك موسى، لأنه أهمل ختان أحد أبنائه، ونجا فقط بتدخّل مناسب من زوجته، صَفُّورَةُ، التي أخذت "صَوَّانَةً وَقَطَعَتْ غُرْلَةَ ابْنِهَا".

ذلك أن العضو الرجولي قد إعتبر مقدّس بشكل خاص عند الخالق، أمّا كرمز له أو كالآلة التي ينجز بها سلطته المقدسة، السلطة أو القوة التي برهنت عالميا في كلّ المعتقدات والعادات القديمة. وبالأضافة إلى حقّ الختان، وفقط للتذكير، يقدّم العهد القديم أمثلة عديدة للقدسية المرتبطة بهذا الرمز. لقد كان الختان عادة شائعة بين العبرانيين، عندما يأخذ يأخذون يمينا غليظة، يوضعون أيديهم على العضو المنتج للشخص الذي يحلف له أو يعطونه وعدا. لقد كانت هذه طريقة مهيبة ومخلصة كما هي حال تقبيل الكتاب المقدس اليوم أو رفع اليدّ اليمنى، وكانت مؤشّرا على نفس المعنى—أن تدعوا الله لشهادة الحق وإخلاص القسم.

أشير لهذه العادة الإصحاح 24 من سفر التكوين، حيث قيل لنا: "وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ، .. «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخْذِي، فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلهِ السَّمَاءِ وَإِلهِ الأَرْضِ .. »" ومرة ثانية، في الإصحاح 47 من ذات السفر، كتب أنه عندما أوشك يعقوب على الموت دعا إبنه يوسف إليه، وطلب منه أن يضع يده تحت فخذه، وأن يعده بأنّ لا يدفنه في مصر. لا تزال هذه الممارسة موجودة في بعض أجزاء بلاد العرب وأفريقيا، وقد يستشهد بعادات مختلفة مشابهة، في دليل آخر على العلاقة المقدّسة المفترض وجودها بين عضو الخلق والخالق. فمن خلاله أظهر الخالق سلطته العليا، ولذلك فقد كان قضيب الرجل يحظي بالتوقير والعبادة، كما لو أنه كان الخالق نفسه.

في حالات كثيرة كانت الصلاوات تؤدى بإخلاص لهذا الرمز، إيمانا منهم أنهم يتوجهون بذلك الخطاب للرب، والإيمان البدائي بالحضور الفعلي للخالق، وبالفعل المنتج، نراه ثانية في الممارسة الدينية القديمة للنساء اللواتي يقدّمن أنفسهن لمعانقة الكهنة كممثلين للرب. لم تكن هذه الممارسة ممارسة غير عادية، وكانت تلجأ إليها النساء خصوصا العاقرات، في إعتقاد راسخ لهن أنه بهذه الطريقة يضمن إتصالاً مقدساً مع إلههن الخالق، وبذلك يجعلن فرصهن بإنجاب الأطفال مؤكدة.

لا تزال هذه العادة ممارسة في الهند، وهي ليست نادرة، كالزوج الذي يصحب زوجته إلى الكاهن، ويبقى مشاهدا بوقار الفعل الذي يمثّل إتحاد الله والمرأة. في مناطق مختلفة من الهند يتم تخصيص أيام معيّنة كلّ سنة لزيارة الإله الخالق، وفي هذه المناسبات تذهب النساء إلى المعابد وهناك تستلم من الكهنة، "البركة المقدّسة" التي لا تستطعن الحصول عليها من الخالق عن طريق أزواجهن.

التالي في الأهمية بعد الولادة نفسها، هو السبب الذي يقرّر جنس النسل. لماذا يجب على الإنسان أن ينجب تارة والدا وأخرى بنتا؟ ما السبب لهذا الإختلاف في الجنس؟ هذا هو السؤال الذي عبثا نسأله لأنفسنا اليوم، وهو نفس السؤال الذي حيّر عقول البشر في العصور السالفة. طبيعيا، بحث عن تفسير له في بعض خصائص القضيب، كخالق مسؤول؛ وبينما لم يؤدّي هذا إلى حلّ مؤكّد للغز، أدّى ذلك إلى الإكتشاف المهم الذي تلعب فيه لواحق العضو الذكري دورا مهما وضروريا في فعل الخلق، والإختلاف المفترض في أحجامها النسبية وموقعها كان سببًا في طرح النظرية،—والتي يتبناها كثيرون اليوم،—التي تقول أن الخصية اليمنى تنتج الجنس الأقوى، بينما الخصية اليسرى أو الصغرى مسؤولة عن إنجاب نساء العالم. كان هذا الإعتقاد بشكل عام قد إصطبغ بمزاج القدماء، وأثبت بإشارات إليه في السجلات المبكّرة، بما في ذلك العهد القديم، عندما كان الآباء يشيرون إلى أولادهم الذكور أنهم أطفال جنبهم الأيمن.

لذلك، أصبح من الواضح، أن الخالق المثالي يتكون من ثلاثة أرباب، كلّ رب منهم متميّز وكامل في نفسه، لكنهم يعتمدون على بعضهم لإنجاز مهمة الخلق، ذلك أنّه في وحدتهم وتعاونهم فقط هم قادرون على فعل الإنتاج كخالق مطلق ومثالي.

من هذا، ليس من الصّعب فهم كيف أن الإله الخالق قد أعتبر إلها ثالوثيا، ولا نعجب عندما نعلم، أن عبادة الثالوث تعود إلى أحلك العصور وأكثرها بعدا. فقد عبد الآشوريون، أحد أقد أمم العالم، ثالوثا عرف باسم: **آشور–آنو–هوا**، وبدراسة لإشتقاق هذه الأسماء نجد أنّها تشير مباشرة إلى العضو المنتج الثالوثي. فآشور يمثّل القضيب، لأن اسمه يعني بوضوح: **المُنتصب، العضو القائم**. الخصية اليمنى، وهي، كمساعد في إنتاج الأطفال الذكور، كانت في المرتبة التالية للقضيب

نفسه، وتمثّلها آنو، اسم إشتقّ من الكلمة التي تعني القوّة، القدرة أو القوّة الرجولية تحديدا؛ بينما نجد أن هوا، العضو الثالث للثالوث، تشير إلى العنصر الأنثوي.

بهذا، كما في كلّ ثالوث لاهوتي لاحق، كانت الشخصيات التي تشكل الثالوث ذا رتب متناسبة؛ ثلاث كينونات أو أعضاء متميّزين، كلّ منهم ضروري للآخرين، تعمل سوية كواحد نحو هدف واحد. وهم مجتمعين يشكّلون الإله الأعلى، الخالق، تحت الاسم الجماعي: **بعل**. بينما كانت عادة إعطاء الثالوث اسما متميّزا عن أيٍّ من أفراده المكوّنين له، عادة شائعة في كلّ الأديان، ولم يلحظ عموما، كقاعدة، أن الثالوث، أو الخالق الكامل، أن عرف تحت اسم مكونه الأول في الرتبة،—مثل آشور، رب الأرباب.

لذلك، فنحن نجد أن التركيب الثالوثي للخالق الذكوري قد عُرف مبكرا، وأن تبجيل الذي حضى به العضو الذكوري الكامل والمثالي، قد خلد ذكره بحقيقة أنّه كان هدف الأنظمة الدينية. عن هذه الحقيقة نجد عرضا وبرهانا كافيا في العهد القديم، حيث علمنا، على سبيل المثال، في سفر التثنية، أنّ الرب يهوه بنفسه، قد أمر بأن "لاَ يَدْخُلْ مَخْصِيٌّ بِالرَّضِّ أَوْ مَجْبُوبٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ"،[8] إشارة واضحة للأهمية القدسية التي إرتبطت بالحالة الممتازة لرمز الخالق هذا.

هذا الإحترام المقدّس للصلابة وفي نفس الوقت لسلامة العضو المنتج، ربما نراه معروضا بشكل أكثر تفصيلا في الإصحاح 25 من نفس السِّفر، حيث نجد أنّ الرب قد أمر، أنّ المرأة ستقطع يدها إذا أمسكت بأعضاء زوجها التناسلية، حتى لو كانت في أشد حالة لتخلصه من عدو.[9]

وعلى أية حال، لا يجب أن نفترض أنّ هذا ‘الوقار الديني للذكورة المثالية’ هي حصر علي الماضي، لانه في وقتنا الحاضر، لا يمكن أن يكرّس ككاهن أو يرشح للأسقفية من كان مشوه جنسيا، وبالتالي "ليس رجلا"؛ أو أقل بكثير، أن يرفع إلى العرش البابوي.

هذا المطلب، الذي يجب على المعلمين والزعماء الدينيين إمتلاكه، هو كائن حي منتج كامل في الشكل والوظيفة، هو مطلب عام جدا، وقد كان دائما كذلك. قيل لنا أنه قبل ميلاد المسيح بألف وخمسمائة سنة، أن الرب وبشكل واضح، قد حرم على الكاهن مزاولة مهنته إذا تلفت ذكورته[10] (لاويين 21: 20).

كان ينظر للمخصيّ أو الرجل العاجز دائما على أنه مخلوق محتقر وملعون، محتقر من قبل الإنسان والله على حدّ السواء. ففي العصور القديمة أعتبر الإخصاء عقابا أسوأ بكثير من الموت؛ مصير ينزل بالرجل إلى ما دون مستوى أخس بهائم

---

[8] سفر التثنية 23: 1

[9] "إِذَا تَخَاصَمَ رَجُلاَنِ، رَجُلٌ وَأَخُوهُ، وَتَقَدَّمَتِ امْرَأَةُ أَحَدِهِمَا لِكَيْ تُخَلِّصَ رَجُلَهَا مِنْ يَدِ ضَارِبِهِ، وَمَدَّتْ يَدَهَا وَأَمْسَكَتْ بِعَوْرَتِهِ، فَاقْطَعْ يَدَهَا، وَلاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ" (تثنية 25: 11-12)

[10] وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلاً: كَلِّمْ هَارُون قَائِلاً: إِذَا كَانَ رَجُلٌ مِنْ نَسْلِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ فِيهِ عَيْبٌ فَلاَ يَتَقَدَّمْ لِيُقَرِّبَ خُبْزَ إِلهِهِ .. وَلاَ مَرْضُوضُ الْخُصَى. كُلُّ رَجُل فِيهِ عَيْبٌ مِنْ نَسْلِ هَارُونَ الْكَاهِنِ لاَ يَتَقَدَّمْ .." (لاويين 21: 16-21)

الأرض وأقلها شأنا. وكلما كان الرجل أعظم فحولة، كان أكثر إحتراما؛ وكان التبجيل الموجه للإله متناسب دوما مع القدرات الجنسية المنسوبة لهذا الإله. مثل هذه الآلهة كانت تعرف بكونها موهوبة بقوة رجولية أكبر وإختصّت بوظيفة أكثر إتصالا بفعل التناسل والإنجاب، وشُرّفت على أقرانها من الآلهة، وهكذا كان قضيب الرجل (الفالوس) هو الخالق، القادر على كل شيء والمنتج الأبدي، والإله الأعلى. فسلطاته الخالقة المبدعة غير محدودة؛ وهكذا، كان هو الحاكم، سيد كلّ الآلهة الأخرى وسيد كلّ الرجال.

عبادة الجنس

الفصل الثالث

القضيب.

ترجع عبادة القضيب، الرمز الذكوري للخلق، إلى عصور سحيقة ومجهولة من الماضي. تشير السجلات الأولى للمصريين والهندوس القدماء إلى العبادة القضيبية كمؤسسة قديمة التأسيس، وتبين أنه قبل العصر المسيحي بآلاف السنين كانت سببا في تطور أنظمة علم اللاهوت. كان لكلّ من هذه الأديان جسم مهيمن، تعبد قوي التناسل والإنجاب للطبيعة، ممثّلة بالأعضاء التناسلية، والتي مثّلت باعظم تشكيلة من الصور والتماثيل والشعارات المختلفة.

وكان القضيب، من بين أبرز هذه التصاوير، يشير في أكثر معانيه دقة، إلى صورة العضو الذكري أكثر منه إلى العضو نفسه. كانت هذه الصور، في تمثيل دقيق للعضو الذكري، شائعة جداً بين القدماء. فقد صنعوه بكلّ شكل وحجم معقول، وصنعت أشكال عديدة منه بمادة مرنة، ونحتت أخرى من الخشب والحجر والعاج. أحيانا كانت تمثّل العضو في حالته السلبية (الإرتخاء)، الشكل الذي كان عموما بحجم ضئيل، وتلبسه النساء كتعويذة. مثل هذه التعاويذ ما تزال شائعة بين عُبّاد القضيب في الهند اليوم، كثير منها تكون بحجم دقيق وتصنع من الذهب أو الفضّة أو العاج أو البلّور أو الخشب المقدّس. تلبس هذه التمائم فى الذراع أو على الصدر أو في العمامة.

إن الشكل الأكثر شيوعا لهذه الصور القضيبية، كان على أية حال، هو التمثيل الواقعي للقضيب في وضعه المنتصب، الشكل الذي أُعتبر تصويراً صريحاً للرمز المقدّس للخالق. وعندما أستعمل كأصنام بيتية، كانت هذه الأوثان بالحجم الحقيقي للقضيب تقريبا، لكن تلك المستخدمة في الإحتفالات الدينية وفي المعابد، كان مبالغ جداً في حجمها، لتصل أحيانا إلى إرتفاع بين عشرين أو ثلاثين قدماً، مع مطابقة في الأبعاد للشكل بالكامل.

كانت العديد من المعابد اليونانية والرومانية، على غرار تلك من الأمم الأخرى، مكرّسة خصيصا للقضيب، الذي إحتلّ الجزء الأبرز والأقدّس للصرح المقدّس، وتلقّي العبادة والتبجيل من المُحبِّين، الذين أظهروه بقرابين من الزهور والنبيذ، وصلّوا له، كممثل مقدّس للخالق.

كانت هذه الصورة أو الوثن مظهراً متميزاً في مهرجانات الإله باخوس باخاناليا Bacchanalia[11] ومهرجانات مواسم الربيع الأخرى عند اليونانيين والرومان، إحتفالا بتجدد الحياة. تذهب النساء، في هذه المناسبات، إلى معابد هذا المعبود،

[11] كانت هذه المهرجانات تضم فيما يُعتقد، أضاحٍ حيوانية وعربدات جنسية. وكانت تجمعات هذه العبادة تشكل في نظر مجلس الشيوخ الروماني تهديدا لسلطة روما، فَحظرت هذه العبادة وألغت إحتفال الباخاناليا سنة 186 ق.م.

وهناك تؤدّى طقوس الأسرار المرتبطة بعبادته، كممثل للبارىء المقدس؛ مع غناء تراتيل المديح للإله، ودهن القضيب المقدّس بالنبيذ المكرّس، بالإضافة إلى تكليله بالزهور وتقديم أنواع مختلفة من القرابين.

وكان إحتفال الليبراليا Liberalia الروماني، الذي يجرى في مارس، عدا كونه إحتفالا دينيا تكريماً للإله ليبر Liber، عنوانا آخر لباخوس، إله القوّة المُولّدة. كان هذا الإحتفال مناسبة للإبتهاج العام، ولم ينحصر في مكان معيّن أو مجموعة معيّنة من العُبّاد، كما هي حالة الأسرار الباخانالية، بل أدركه الناس في كلّ أنحاء إيطاليا والأقاليم الرومانية.

لعب القضيب، كرمز للإله باخوس، دوراً مهماً في هذه الأعياد. وفي كثير من الأماكن كان يوضع شعار مجدد الحياة هذا في عربة، ويغطى بالزهور، يحيط به حشد مرح من الرجال والنساء والأطفال، فتسحب العربة حول الحقول، على طول الطرق السريعة وخلال البلدات، وسط أفراح وإستقبال حافل من الناس.

في بعض البلدات والمدن، يتم جر عربة رائعة تحمل قضيبا هائل الحجم، مزيّن بإبتهاج ومرح، ببطئ خلال الشوارع، مصحوبة بموكب عظيم من الناس، وبهذه الطريقة كان يحمل إلى مركز الميدان العام، حيث يتوقّف الموكب. تتقدم عندها المرأة الرئيسة الأكثر إحتراما في البلدة، كمستحقّة لإذاعة الشرف، وسط صيحات سعيدة من عامة الناس، فتتوّج رمز الإله بإكليل من زهور اللبلاب.

كانت النساء الرومانيات تحتفلن بمهرجان فينوس، ربة الحبّ والولادة، في نفس وقت، أو بُعيد، مهرجان الليبراليا. كن يحضرن هذا الإحتفال بفرح وسرور وتحرر عامّ من القواعد الصارمة للحشمة الأنثوية. وفي المراسيم الرسمية للمناسبة، تتقدم السيدات في مراتب إلى الكوينرال Quirinal، تلّة رومولوس Romulus، حيث يقف المعبد الذي يحوي القضيب المقدّس. يكون هذا الشعار المقدّس بحوزة النساء، اللاتي يتشكّلن في موكب ويرافقنه بوقار إلى معبد فينوس، حيث يقدّمنه لتلك الربة، التي تتوسط المناسك الموسّعة والبهيجة.

صوّرت هذه المراسم بقصد على حجر كريم روماني قديم، تظهر عربة النصر تحمل مذبحا، مثبت فوقه قضيب ضخم. يحوم فوق هذا الرمز جسم أنثوي، يحمل تاجا من الزهور فوقه. والعربة، التي تظللها سُرادق مفرطة الزيّنة مدعومة بأربع نساء نصف عاريات، تسحب بالثيران والماعز، ويركبها وِلْدان مجنّحة، وتتقدمها فرقة من النساء ينفخن الأبواق. وبإتجاه الموكب هناك شكل يمثل فرج المرأة يرفعه جنّيان.

وعندما يكتمل هذا الإحتفال، بعد أن يلتحم الشعاران مع بعضهما، يُعاد القضيب بإيمان ورهبة إلى معبده.

كانت مجسمات أصغر للقضيب كثيرا ما تنصب على قارعة الطريق، وأمام أبواب المساكن، وتحت الأشجار في البساتين والغابات المقدّسة. والبقعة التي يقف فيها هذا الشعار المقدّس تعتبر أرضاً مقدّسة، وكانت هذه الأوثان تنال نفس التوقير والإحترام الديني مثل الرموز المسيحية اليوم.

لا شكّ، أنّ العديد من المخلصين قد إعتبر أن القضيب هو الإله نفسه، كحالة الكثيرين اليوم، الذين يصلّون لتمثال العذراء أو المخلّص المصلوب، بيد أن وفائهم وتقواهم لم يكن مع ذلك أكثر عمقا وأخلاصا. فالمرأة التي تركع أمام تمثال مكرّس للقوّة الذكورية الخالقة، وتصلّي من أجل بركة الأطفال، كانت محتشمة وجدّية في ممارستها الدينية كالمرأة المسيحية المعاصرة، التي تتضرّع لأجل هدية مماثلة من العذراء المقدّسة أو الآب.

لقد أعتبرت فرص ضمان الإخصاب أفضل إذا أُديت الصلاة في اتصال مع هذا الوثن، ولهذا السبب كان من المألوف للمتضرعات أن يعرّين أنفسهن وأن يجلسن على تمثال القضيب أثناء الصلاة.

لا يزال هذا الطقس يمارس في بعض أجزاء العالم، من قبل البنات والنساء من كلّ الأعمار والفئات، لغرض إستحضار العون المقدس. فمن الشائع في القرى الشرقية أن ترى حجران—أحدهما، مسطح ودائري، والآخر، أصغر وأملس يقف عموديا— يوضعان بقرب بعضهما في ركن معزول أو حديقة. فتخطو من تريد التضرع على الحجر الدائري، وتعدّل قماشها، وتُجلس نفسها على الحجر القائم، تتلو صلاة قصيرة وتدعو إلهها بعضا من البركة المطلوبة.

يروي كاتب، كان زائراً مؤقّتاً للهند منذ مدة طويلة، يقول: أنه "منذ أيام كثيرة جلست في الفجر المبكّر علي باب خيمتي، التي نصبت في بستان مقدّس، وحدّقت في مجموعة صغيرة من الإناث ظهرن خلسة من القرية المجاورة النصف-نائمة، كلّ واحدة منهن تحمل إكليلا أو باقة من الزهور، وعندما إعتقدن أن لا أحد كان يراقبهن، ورفقة صلاتهن لأجل بوليبالام poolipalam (ثمرة طفل) حككن بإحترام جزءا محددا من جسمهن على فالوس."

لقد إعتبر القضيب بسبب قدسيته تعويذة ضدّ الأرواح الشرّيرة، وهو من حين لآخر يوجد في القبور القديمة، حيث كان يوضع لحراسة الموتى من الشرير. مثال رائع لهذه العادة كان قد إكتشف في مصر منذ فترة ليست بالطويلة، حيث وجد في مدينة طيبة مومياء إمرأة ذات شأن، دفن معها قضيب محنط لثور.

إنّ إستعمال وعبادة الأوثان القضيبية مشار إليه في أكثر السجلات قدما. ففي سفر التكوين، كتب أنه عندما هرب يعقوب بعائلته بقطعانه من بيت لابان، حملت[12]

[12] "فَقَامَ يَعْقُوبُ وَحَمَلَ أَوْلاَدَهُ وَنِسَاءَهُ عَلَى الْجِمَالِ ... فَسَرَقَتْ رَاحِيلُ أَصْنَامَ أَبِيهَا" (تكوين 31: 17-19)

زوجته راحيل، معها ترافيم[13] teraphim(وثن) خاص بأبيها لابان، وهو تمثال صغير لإنسان، يشكّل القضيب مظهره المميز.
وتتبين الأهمية المقدّسة المرتبطة بهذا التمثال في حقيقة خروج لابان وراء يعقوب، وأدراك صهره في نهاية رحلة سبعة أيام، وسؤاله: **"وَلكِنْ لِمَاذَا سَرَقْتَ آلِهَتِي؟"** فقال يعقوب للابان، وهو لا يعرف بأنّ زوجته قد أخذتهم، أنّه من وجدت الآلهة في حوزته من أهل بيته، يكون الموت مصيره. ولكي لا يكتشف أمرها، جلست راحيل على الأصنام، "وَقَالَتْ لأَبِيهَا: «لاَ يَغْتَظْ سَيِّدِي أَنِّي لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُومَ أَمَامَكَ لأَنَّ عَلَيَّ عَادَةَ النِّسَاءِ». فَفَتَّشَ وَلَمْ يَجِدِ الأَصْنَامَ." (تكوين 31: 30-35).
ومرة أخرى، نجد في سِفر القضاة أنّ ميخا قد صنع بعضا من هذه التماثيل لنفسه، وأن الدانيين قد أخذوها منه وعبدوها؛[14] وفي سِفر الملوك الأول حديث عن مَعْكَة (إبنة أبشالوم)، التي "خَلَعَهَا (إبنها آسا بن داود ملك يهوذا) مِنْ أَنْ تَكُونَ مَلِكَةً، لأَنَّهَا عَمِلَتْ تِمْثَالاً لِسَارِيَةٍ"(15: 13).
في الحقيقة، يحتوي العهد القديم إشارات عديدة إلى تماثيل وأصنام من هذه الشخصية؛ ولا يجب أن يفترض إن إستعمال مثل هذه التماثيل قد خصّ فقط البشر من الماضي البعيد؛ لأنه كما بيّنّا وسنبين، أنها كانت شائعة جدا في الهند، وهي مشتركة بين عبدة القضيب من الأمم الأخرى اليوم؛ كما في داهومي Dahomey، مثلا، حيث تبرز الأشكال القضيبية في شوارع كلّ مستوطنة.
ومنذ وقت قصير جدا مضى ظهرت هذه التماثيل بوضوح في مهرجان مسيحي للقديسين كوزمو Cosmo وداميانو Damiano، في إسرنيا Isernia، بإيطاليا؛ وفيه تقدم النساء المكرسات تماثيل فالوسية من الشمع للكاهن، صحبة الصلاوات من أجل البركات الزواجية والأمومية.
تنتشر عادة مماثلة لهذه في بعض أجزاء فرنسا، حيث تصنع هذه التقدمات والقرابين الشمّعية لأجل القديس فونتين Foutin، قدّيس راعي الرجولة؛ وكدليل آخر لوجود العبادة القضيبية المعدّلة، وإرتباطها بالمسيحية، هناك رواية رسمية، تقول أنه في أورانج Orange، في كنيسة القديس إتروبيوس Eutropius، كان هناك فالوس مصنوع من الخشب ومغطّى بالجلد، كان مبجّل إلى حد كبير من قبل سكان البلدة، كرمز للقدّيس، الذي طلب عونه في كلّ الأمور التي تخصّ الوظائف الجنسية والتوليدية.

[13] ترافيم: كلمة عبرية معناها "مسعدات" وقد وردت بدون ترجمة، وقد تترجم أصناما. وهي أصنام أو آلهة رب البيت وتكون صغيرة جدا لسهولة حملها في الهروب بسرعة وإخفاؤها. كان اليهود يعتقدون أنها مجلبة للفأل الحسن وكانت تستشار في أمور الدين والحياة، وكان لمن عنده هذه الآلهة الحق في وراثة نصيب البكر. كانت تصنع من الفضة أو الحجر أو الخشب. وكان في بيت داود ترافيم لزوجنه (صموئيل الأول 19: 13). وكانت هذه الأصنام شائعة بين اليهود الذين عادوا من السبي البابلي.
[14] سفر القضاة 17: 5؛ 18: 18-31

لطالما صُوِّر القضيب على العملات المعدنية، نحتا وعلى الزهريات والمواد الأخرى، كما يمكن أن يُرى في البقايا التي وجدت، ليس فقط في المدن القديمة، بل في تلك الخرائب من أزمنة أكثر حداثة. تظهر نقوش نافرة لبعض البنايات القديمة في فرنسا تنويعات فردية للقضيب، بعضها في مجموعات ثنائية وثلاثية ومجهّزة بأجنحة، ومخالب، ومناقير، الخ. أحدها وضع له لجام ويمتطيه عفريت، وآخر يتبين أنه يستقبل التبجيل من أحد المخلصات له من النساء، بينما يصوّر شكل آخر وهو يقف على ساقين بشريتين. لقد صمّمت هذه التصاوير، بالإضافة إلى تلك المصوّرة على المصابيح والأواني المستعملة لأغراض كهنوتية، لترمز للأفكار الدينية.

لقد وجد أمثلة عديدة لفن النحت القضيبي، وزهريات وصحون قضيبية الشكل، في روما ومدن إيطالية أخرى؛ خصوصا بين خرائب مدينتي بومبي Pompeii وهيركولانيوم Herculaneum.. ففي متحف بورتيشي Portici، مثلا، هناك صورة فالوس ضخم صوّر على غطاء مزهرية قديمة إستعملت لأغراض مقدّسة، تحتضنه إمرأة بذراعيها؛ بينما تظهر مزهرية أخرى بائعاً بشكل فالوسي يُقدّم سلة بها بضاعته لمجموعة من النساء. ومع ذلك، فالأهمية الدينية لمثل هذه التصاميم بالكاد تقدّر اليوم، وحقيقة أنها قد صوّرت على أدوات إستعملت في الملاجئ، هو دليل على المعنى المقدّس المرتبط بها أصلا.

فتحت اسمه الهندي "**لنجام** *lingam*"، لا يزال القضيب شائع الإستعمل كرمز ديني في كافة أنحاء الهند، حيث إزدهرت العبادة القضيبية بدون إنقطاع لآلاف السنين. اللنجام هو الرمز المقدس لشيفا Siva، الإله الناسخ، العضو الثالث للثالوث الخالق الهندوسي، والموجود في كلّ معبد مكرّس لعبادته. وهو موجود عموما، في المُعتَكف (الحرم المقدس)، أو قدس الأقداس، ويُكلّل بالزهور أو يزين بالقرابين والهدايا الأخرى. تصنع هذه التماثيل من حجر الجرانيت، أو الرخام، أو العاج، أو الخشب الثمين، وتكون عموما بأحجام كبيرة جدا، يصل بعضها إلى إرتفاع هائل من أربعين قدما، ويصل محيطها الى خمسة وعشرون قدما.

يمكنك أن ترى معابد اللنجام بأعداد كبيرة على ضفتي نهر الغانج Ganges، خصوصا في أحياء مدينة كلكتا Calcutta. إن حضور هذه الآلهة قرب النهر، يستثمر قداستها العظيمة أكثر مما إذا بُنيت في داخل البلاد، ويعتبر النهر مقدّس بشكل خاص. يلحق تقريبا بكلّ واحد من هذه المعابد، بيت صغير، يفتح من الأمام، لإسكان المُريدين الذين يأتون هناك للموت بالقرب من النهر. تتوزع المعابد في مجموعات من ثمانية أو عشرة، بينما تصل في بعض الأماكن الى حوالي المائة، تتموضع ضمن مدى قصير أحدهما عن الآخر.

يُقسِم الكهنة المكرسون لهذه المعابد على العفة بصرامة شديدة؛ وبينما هم عراة أثناء أداء الطقوس، يؤدّى أيّ حماس جسدي للخيال قد يظهر بالأعضاء الخارجية، إلى الرجم السريع للكاهن الغير مخلص.

وفي الوقت الذي تكون فيه تماثيل اللنجام في المعابد بأبعاد عملاقة، تكون تلك المستعملة للعبادة البيتية صغيرة، قد يصل إرتفاعها بضعة بوصات؛ وكما ذكرنا سابقا، يلبس هذا الشعار بحجم ضئيل كتعويذة أو تميمة، ويستعمله الهندوس في الصلاة كما يستعمل الكاثوليكي المتدين الورع رمز أو تمثال قدِّيسه الراعي.

إنّ عبادة اللنجام منسك ديني هام وضروري، وعندما يؤدّى بشكل صحيح وكامل بموجب الطقوس الموصوفة، تكون مراسم متقنة جدا، تشمل ستّة عشر مطلب ضروري، بما في ذلك غُسل تطهّر تمهيدي للمتعبد، وغسل للنجام بالزبد المصفّى، والعسل وعصير قصب السكر، وتكليله بالزهور، والبخور، والقناديل، والثمار وأنواع مختلفة من المأكولات المحضّرة، مع تلاوة الصلاوات، والطواف حول الوثن والركوع له.

ليس من الضروري أنّ تجرى هذه العبادة داخل المعبد، بل يمكن أن تؤدّي في أيّ مكان مطهّر. تعتبر هذه العبادة أكثر فعّالية عندما تؤدّى على ضفة نهر مقدّس أمام تمثال لنجام مصنوع من الطين. يقوم الهندوس من كلّ طائفة ومن الجنسين كلّ صباح، بعد الإستحمام بمياه نهر الغانج، بعمل تماثيل لهذا الرمز من طينة النهر، والتعبد أمامها؛ والإنحناء لها، وتقديم القرابين، وتلاوة عزائم وصلوات خاصة. وعند إكتمال المراسم، ترمى تلك التماثيل فى النهر.

لكلّ قرية لنجامها العامّ، بإرتفاع قدمين أو ثلاثة، والذي يبدو كتعويذة، يوضع في أكثر الأجزاء وضوحا في البلدة. وقد ترى في الصباح الباكر بنات ونساء الحيّ يرششن الوثن بماء نهر الغانج، ويزيّنه بأكاليل الزهور، وبينما يفركن أجسادهن عليه، يتلون التعازيم الموصوفة ويستعطفن الإله لجعلهم أمهات مثمرات.

كان الرمز الأكثر شيوعا واقعية للقوّة المنجبة، هو تمثال أو تمثيل الجسم الذكوري، أمّا عاريا بالكامل، أو أنه يظهر القضيب ببساطة، والذي كان عموما بحجم كبير وغير طبيعي. وإلى يومنا هذا، يمكنك أن تري على حيطان المعابد في الكرنك وطيبة تصاميم قضيبية لهذه الشخصية؛ وهي تصوير لما كانت عليه أفكار الجنس والدين، وكم كانت متشابكة بحميمية في الحضارة المصرية القديمة.

هناك العديد من أشكال آلهتهم وملوكهم، تظهرهم وهم يمتلكون فحولة غزيرة وغير عادية. وتمثّل هذه الصور أيضا عملية إخصاء الأسرى، وهي طريقة شائعة من طرق العقاب بين القدماء، الذين إعتبروا غياب القوّة الجنسية العقاب الأكثر خزي ومذلّة يمكن أن يحدث لرجل. كثيرا جدا ما يصوّر الإله المصري أوزيريس

بأعضاء تناسلية كبيرة وبارزة، كعلامة لسلطته العليا والمقدسة، وتُحمل تماثيله، التي بهذا الشكل، في المواكب المرتبطة بالمهرجانات الدينية للمصريين.

كان إله القضيب الروماني بريابوس Priapus، إله الولادة، يمثّل دائما بشكل من هذا النوع؛ وبما أن الرومان كانوا عبادا متحمسين لبريابوس، نشروا عبادته بين الشعوب الذين كانوا علي إتصال معهم، لم تكن صور وتماثيل هذا النوع من الآلهة نادرة في البلدات القديمة المختلفة لإيطاليا وأجزاء أخرى من أوروبا. تزخر العملات المعدنية الرومانية، والمنحوتات، والأحجار أو الحُلى المنقوشة، بكثير من التصاوير التي تمثل بريابوس، في كلّ الأشكال والأوضاع؛ وأحيانا لوحده، لكنه يصور كثيرا كشخصية رئيسية في المشاهد الإيحائية أو مشاهد التسالي الجنسية الصريحة.

كانت هذه التماثيل البريابية (نسبة لبريابوس) أجسام عبادة محترمة ومقدسة، تمثيل واقعي للإله الخالق، تلجأ إليه النساء، خصوصا اللواتي يرغبن بنيل بهجة الأمومة، وكذا النساء المتزوجات حديثا، اللواتي يُطلب منهن التضحية ببكارتهن للإله من خلال وسيط لتمثاله المقدّس.

لقد إنغرز هذا الإيمان عميقا في التفكير الشائع بين القدماء بخصوص كفاءة الصلاوات المقدمة لتماثيل الإله الخالق، حيث إستمرّت عبادة الفالوس في بعض أجزاء فرنسا حتى وقت قصير نسبيا؛ الفرق الوحيد في عبادته هو أن التماثيل قد أعطيت أسماء القديسين المسيحيين، بدلا من اسم بريابوس الوثني القديم.

عبد سكان بوردج دو Bourg Dieu، قرب بوردجي Bourges، أحد هذه التماثيل التي الموجودة منذ أيام الرومان. لقد حول الرهبان الخائفون من وضع حدّ لهذه الممارسة الدينية القديمة، وذلك بتحويل الإله القديم إلى القديس غريلوشون Greluchon، وتوجّهت النساء العاقرات الى ديره زرافات لمناشدة مساعدة القدّيس، وللإحتفال بالنوفنّا[15] novena علي شرفه. تقوم المريدة بمدّ نفسها بالكامل على هذا الصنم الذي يوضع على الأرضية، ثمّ تقشط بعض الذرات من قضيب التمثال، تضع هذه الشذرات في الماء وتشربه معتقدة أنها تشكل شرابا إعجوبيا.

وكان القديس جايلز Giles، في بريطانيا، والقديس رينيه Réné في Anjou، والقديس رينود Regnaud والقديس آرنود Arnaud يُعبدون بنفس الطريقة؛ مع أنه في حالة الأخير، كان مئزر غامض عادة ما يُغطّى رمز الخصب، ويرفع فقط لمصلحة المريدات العقيمات. قيل أنه بمجرد تفتيش بسيط، إذا صحبه إيمان حقيقي، يمكن أن يكون ذلك كافيا لإحداث المعجزات.

كان القديس فونتين Foutin أحد أكثر القديسين شعبية بين الذين نسبت إليهم قوّة الولادة. كانت تماثيله رائجة في أجزاء مختلفة من فرنسا، وقد كان يتلقى العديد من

---

[15] النوفنا: ...

الصلاوات والهدايا، لأنه قيل أنه لم يكن يملك هدية شفاء النساء العقيمات فحسب، بل أنه يعيد الحيوية المنهكة ويعالج الأمراض السرية. لذلك، لم تنحصر عبادته بين محبّيه من النساء فحسب، بل يشتركن في عبادته مع الرجال على حد سواء، اللذين يُقدّمون بإيمان للكهنة تماثيل شمعية للأجزاء التالفة، كقرابين للقدّيس، بإيمان ورع وإخلاص، أنّهم بهذه الطريقة المقدّسة سيشفون.

من بين بقايا كنيسة في Embrun، وجد قضيب تمثال هذا القدّيس، الذي تلطّخ بلون أحمر داكن، نتيجة لعادة صبّ الخمر فوقه. كان دهن التمثال بهذه الطريقة تقليد معروف ومرتبط بعبادة القدّيس؛ الخمر المستعملة هكذا تجمع في جرّة ويسمح لها أن تتحمض، وعندها، تحت اسم "الخلّ المقدّس"، تشربه النساء، كوسائل فعّالة ومعصومة لإنتاج الخصوبة.

الفصل الرابع

الرُّموز القضيبية.

في الوقت الذي وجِدت فيه تماثيل بريابوس Priapus وأوثان الفالوس (أو القضيب) بوفرة عظيمة في خرائب العالم القديم، وبينما كانت ولا شكّ قد إستعملت على نطاق واسع في جميع الأوقات، لا يمكن مقارنتها أبدا بعدد وأهمية الأشكال المعدّلة والتقليدية لرمز الخالق الذي نجده متناثرا في جميع أنحاء العالم، بأعداد وتشكيلات لانهائية، محفوظة اليوم دون علمنا في هندستنا المعمارية، ورموزنا، وعاداتنا. التمثيل الواقعي للرمز المنتج الذكوري أصبح يعدّل بسهولة كبيرة إلى أشكال أكثر رسمية، تم تبنّيها والإحتفاظ بها، إمّا بسبب ملائمتها، لأننا يمكن أن نصنعها بسهولة أكبر، أو لسبب أنّها يمكن أن تتكيّف بشكل أفضل في بعض الإستعمالات الشعائرية الرسمية.

من بين أكثر هذا الأصناف بروزا من الشعارات القضيبية هو **العمود** *pillar*. ليس من الصّعب أن نفهم كيف أصبح القضيب الضخم، الواقف عموديا معدّلا إلى شكل تقليدي لعمود. في الحقيقة، لم تكن العديد من القضبان phalli الكبيرة سوى أعمدة، ولذلك تم تبنّى العمود البسيط، سواء أكان من الخشب أو الحجر، كرمز للقوّة الجنسية والإنجابية. فكان رخيصا وسهل البناء والنصب، وكشكله العامّ، كان يوحي بوضوح للجسم الذي يمثّله، ليس من المفاجئ أنّ أصبح أحد أكثر الشعارات القضيبية شعبية وعددا.

وجدت بقايا الأعمدة الحجرية، كرموز للإله، في كلّ أنحاء العالم. هي عديدة في كافة أنحاء أوروبا، والجزر البريطانية وأمريكا، بينما هي في مصر والهند وبلدان آسيوية أخرى، تكثر بوفرة أعظم. إنّ المسلات المصرية الرائعة ليست أكثر ولا أقل من كونها أعمدة كبيرة، رموز قضيبية، نصب تكريما للخالق وتقديراً لقداسته. في الحقيقة، إن كلّ الهياكل القديمة، من نوع—الأعمدة، والدعامات والمسلات والأنصاب—هي ذات أهمية قضيبية، وتدين بوجودها إلى الدوافع الدينية ومساعي المؤمنين بها من البشر تشريفاً للخالق.

كان إستعمال العمود، بطريقة أو بأخرى واسعا جدا. تَحمِل بقايا هذا الرمز، في كلّ أنحاء أوروبا وفي إنجلترا وسكوتلندا وإيرلنده، دليلا على حقيقة أنّ العبادة القضيبية لم تنحصر في بعض الأماكن أو الشعوب، إنما كانت شائعة في كلّ أجزاء المعمورة، ولعبت دوراً مهيمناً في دين الإسكندناف Scandinavians، والتوتون Teutons، والساكسون Saxons، والسلت Celts، والغول Gauls، والبريتون Britons (سكان الجزر البريطانية)، إضافة الى أديان الرومان واليونانيين. أما

لتعديد وتوضيح أنصاب وبقايا الفالوسية التي وجدت في بريطانيا العظمى وحدها، فهذا يتطلّب مجلدا من الحجم الكبير.

إن القضبان الفالوسية الحجرية، التي على شكل أعمدة، شائعة في معابد الصين واليابان، بحق، من بين كلّ الأمم الشرقية. مرورا بنصف الكرة الأرضية الغربي، نجد أن الفالوسية، ممثلة بهذا الشعار أو الرمز، كانت عالمية تقريبا بين الأجناس البدائية وما قبل التاريخية من كلا العالمين: القديم والحديث.

ففي شبه جزيرة يوكتان Yucatan المكسيكية، يقف عمود قضيبي أمام باب كلّ معبد. وفي البيرو وجدت أمثلة عديدة لهذا الرمز، سوية مع قضبان فالوسية طينية قديمة، وجرار ماء صُوِّرت عليها آلهة وآلهات الولادة؛ كما صوّرت أيضا وظائفهم وخواصهم بوضوح. في مركز الساحة العظيمة لمعبد الشمس في كوزكو Cuzco وجد المستكشفون الأوروبيون الأوائل معبوداً (وثن) حجري، صنع بهيئة رغيف السكر وغطى بأوراق الذهب، كان جسم التبجيل الخاصّ عند بعض عامة الناس؛ وفي البرازيل وجدت إشارات مماثلة للعبادة البدائية للقوى المنتجة.

في بولينيزيا Polynesia تصنع الأعمدة من القشّ، وهي عادة تمارس في الهند أيضا، خصوصا في وقت الحصاد، حيث تمثل الأعمدة، والأشكال البشريّة كلا الجنسين بشكل واضح جدا، تصنع وتنصب في الحقول، كأجسام للتبجيل والعبادة.

كانت الأعمدة الحجرية قديماً تنصب فى تقاطع الطرق، وعلي الحدود، وفي الاسواق، وأمام أبواب البيوت، وفي المعابد والكنائس، كتمثيل لهذا الشعار المقدّس الذي يفترض أنه يُكرِّس لتقديس المكان الذي ينصب فيه، ولحراسته ضدّ الأرواح الشرّيرة. ولسبب مماثل، كانت الأعمدة والقضبان الحجرية (كرموز للخالق الحارس) تنصب وتوضع على القبور،ــــوهي ممارسة لا يزال العالم المتحضّر يحتفظ بها الى يومنا هذا؛ أنكُفّ لهذا عن وسم أماكن إستراحة موتانا بالأنصاب والأعمدة والأحجار القائمة الأخرى؟

لدينا برهان كافٍ في التوراة يقول أن العمود أعتبر شعاراً مقدّساً للخالق، لإنه سيذكّر أن نصب العمود كشاهد للرب كان تقليداً معروفاً بين العبرانيين، وأنّه كان دائما مناسبة لمراسيم مقدسة. "فِي ذلِكَ الْيَوْمِ يَكُونُ مَذْبَحٌ لِلرَّبِّ فِي وَسَطِ أَرْضِ مِصْرَ، وَعَمُودٌ لِلرَّبِّ عِنْدَ تُخْمِهَا. فَيَكُونُ عَلاَمَةً وَشَهَادَةً لِرَبِّ الْجُنُودِ فِي أَرْضِ مِصْرَ" (أشعيا 19: 19-20).

لا يستطيع أولئك المحيطين علما بالعهد القديم أن يُعجبوا بالقدسية المرتبطة بتلك الأعمدة، وبالحالات العديدة التي ربط فيها ذكرها بالرب، إمّا كرموز للخالق أو كشاهد له. فهي كثيرا ما تُدعى مذابح *altars* وصخور *rocks*، والتي، كما سنبين حالا، ليست إلا أشكالاً معدلة من العمود، ولها نفس الأهمية.

فقد نصب يعقوب عموداً، وصبّ الزيت فوقه، ودعا المكان بيت إيل Bethel أي بيت الله: "وَأَخَذَ الْحَجَرَ .. وَأَقَامَهُ عَمُودًا، وَصَبَّ زَيْتًا عَلَى رَأْسِهِ وَدَعَا اسْمَ ذلِكَ الْمَكَانِ «بَيْتَ إِيلَ» .. وَهذَا الْحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُودًا يَكُونُ بَيْتَ اللهِ" (تكوين 28: 18-22). وعندما ماتت زوجته راحيل، وضع عمود على قبرها، حسب العادة التي ذكرت سابقا؛ وفي مناسبة أخرى، تقول التوراة في سفر التكوين 35: 14، أنه (أي يعقوب) قد نصب عمودا شهادة للرب، "فَنَصَبَ يَعْقُوبُ عَمُودًا فِي الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ تَكَلَّمَ مَعَهُ، عَمُودًا مِنْ حَجَرٍ، وَسَكَبَ عَلَيْهِ سَكِيبًا، وَصَبَّ عَلَيْهِ زَيْتًا". كانت هذه طريقة شائعة لدهن القضيب، وقد زاولها البشر من كلّ أمم العالم عندما كانوا يقدمون القرابين والهدايا للإله الخالق، الذي يفترض كثيرا أنه يسكن، في حقيقة الأمر، العمود نفسه؛ ومن هنا، كانت أهمية ورمزية كلمة بيت أيل *Bethel*، في وصفها لهذا الرمز.

ونجد أيضا، أن يوشع، عندما أوشك على الموت، قد أخذ حجراً كبيراً، ونصبه تحت شجرة بلوط كانت قرب الحرم المقدس للرب. "ثُمَّ قَالَ يَشُوعُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: «إِنَّ هذَا الْحَجَرَ يَكُونُ شَاهِدًا عَلَيْنَا، لأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ كُلَّ كَلاَمِ الرَّبِّ الَّذِي كَلَّمَنَا بِهِ، فَيَكُونُ شَاهِدًا عَلَيْكُمْ لِئَلاَّ تَجْحَدُوا إِلهَكُمْ»" (يوشع 24: 27).

أشرف الرب على المصريين في عمود نار؛[16] وقاد بني إسرائيل بعمود سحاب وعمود نار،[17] وظهر لهم على شكل عمود[18]ــــجميعها سجلات توضح الأهمية المقدسة لهذا الشعار. "وَكَانَ عَمُودُ السَّحَابِ إِذَا دَخَلَ مُوسَى الْخَيْمَةَ، يَنْزِلُ وَيَقِفُ عِنْدَ بَابِ الْخَيْمَةِ. وَيَتَكَلَّمُ الرَّبُّ مَعَ مُوسَى. فَيَرَى جَمِيعُ الشَّعْبِ عَمُودَ السَّحَابِ، وَاقِفًا عِنْدَ بَابِ الْخَيْمَةِ، وَيَقُومُ كُلُّ الشَّعْبِ وَيَسْجُدُونَ كُلُّ وَاحِدٍ فِي بَابِ خَيْمَتِهِ" (خروج 33: 9-10).

وبما أن الأغلبية العظمى للأعمدة قد صنعت من الحجارة، أو أنها تتكون ببساطة من صخور غير منحوتة، تنصب بالنهاية، فليس من الصّعب إدراك كيف أصبحت كلمتي صخرة *rock* وعمود *pillar* مصطلحان متبادلان؛ أحدهما بمثل رمزية وأهمية الآخر. وبتوسيع أفق القياس، تصبح الأحجار المجرّدة، دون أيّ شبه معيّن للأعمدة، رمزا للخالق، خصوصا عندما تكوّم في كومة؛ ومثل هذه الأكوام الحجرية كانت شكلا مألوفا جدا للرمز القضيبي. نقرأ في الإصحاح الحادي والثلاثون من سفر التكوين: "فَأَخَذَ يَعْقُوبُ حَجَرًا وَأَوْقَفَهُ عَمُودًا، وَقَالَ يَعْقُوبُ لإِخْوَتِهِ: «الْتَقِطُوا حِجَارَةً». فَأَخَذُوا حِجَارَةً وَعَمِلُوا رُجْمَةً .. وَقَالَ لاَبَانُ لِيَعْقُوبَ:

---

[16] سفر الخروج 14: 24

[17] سفر الخروج 13: 21، 22

[18] سفر العدد 14: 14

«هُوَذَا هذِهِ الرُّجْمَةُ، وَهُوَذَا الْعَمُودُ الَّذِي وَضَعْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ. شَاهِدَةٌ هذِهِ الرُّجْمَةُ وَشَاهِدٌ الْعَمُودُ".[19]

ليس فقط لأن هذه الشعارات كانت معروفة ومستخدمة كأهمية الخالق، بل أن الرب نفسه قد لمّح لها كثيرا بكلمة **صخرة**، مبيناً بشكل حاسم، المعنى المقدّس المرتبط بهذا الرمز.

وغالبا ما يشير داود النبي إلى الله باسم الصخرة: "إِلَيَّ تَكَلَّمَ صَخْرَةُ إِسْرَائِيلَ" (صموئيل الثاني 23: 3). "الرَّبُّ صَخْرَتِي" (مزمور 18: 2). "لأَنَّهُ مَنْ هُوَ إِلهٌ غَيْرُ الرَّبِّ؟ وَمَنْ هُوَ صَخْرَةٌ سِوَى إِلهِنَا؟" (مزمور 18: 31). "إِلَيْكَ يَا رَبُّ أَصْرُخُ. يَا صَخْرَتِي!" (مزمور 28: 1).

وإستعمل موسى أيضا، هذا التعبير الرمزي عدّة مرات عندما أشار إلى الرب؛ فأهميته القضيبية تكون واضحة خصوصا، عندما يقول: "الصَّخْرُ الَّذِي وَلَدَكَ تَرَكْتَهُ، وَنَسِيتَ اللهَ الَّذِي أَبْدَأَكَ"(تثنية 32: 18). وتعبير حَنَّة هو بوضوح هذا، التي تقول في صلاة شكرها للرب، الذي رزقها طفلا: "وَلَيْسَ صَخْرَةٌ مِثْلَ إِلهِنَا" (سفر صموئيل الأول 2: 2).

في حالات كثيرة تترجم الكلمة العبرية صخرة الى القوّة، الجبار، أو الله؛ كما نجد، على سبيل المثال، في أشعيا 26: 4: "تَوَكَّلُوا عَلَى الرَّبِّ إِلَى الأَبَدِ، لأَنَّ فِي يَاهَ الرَّبِّ صَخْرَ الدُّهُورِ"، التي تترجم **صخر الدهور**.[20]

من ناحية، كانت الصخرة *rock* تبسيطا للعمود، ومن ناحية أخرى، كان المذبح *altar* إسهاب لهذا الرمز؛ تغيّرٌ نتج من ممارسة تقديم القرابين إلى القضيب أو العمود. ورغبةً في وضع القرابين والتقدمات على الرمز المقدّس، تم تعديل شكله بالتدريج كي يلائمها بشكل أفضل، والنتيجة كانت المذبح؛ جسم لا يزال محترما ومقدسا بوقار، وما يزال يشكّل الميزّة الرئيسية لكلّ ضريح ومكان عبادة.

وكما في حالة المذبح، أصبح العمود معدّلا بطرق أخرى مختلفة، أدّت إحدها أن أعطى العمود *pole* أهمية مقدّسة وقضيبية. وفي الحقيقة، فإن كلمتنا *pole* مشتقّة من كلمة فالوس *phallus*، والتي بدورها مشتقة من كلمة فينيقية تعني "يخترق أو يعبر إلى". إنّ أعياد الناغط *Maypole* الحديثة هي ببساطة إستمرار لإحتفال فالوسي قديم، الذي يزيّن فيه العمود، كرمز للقوى القضيبية المنتجة، بالزهور، في حين يرقص المتعبدون حوله، ويغنون أغاني البهجة والمديح.

---

[19] سفر التكوين 31: 45-52

[20] أنظر إشعياء 30: 29؛ 44: 8؛ حبقوق 1: 2؛ (الآية في نسخة الملك جيمس الجديدة NKJ):

[Trust ye the Lord forever : for in the Lord Jehovah is everlasting strength]،

وفي نسخة أخرى (NKJV, ©1985 Thomas Nelson Inc.):

[Trust in the Lord forever, for in YAH, the Lord, is everlasting strength.]

وكان النمو الرئيسي للعمود هو البرج *tower*. في الحقيقة، لم يكن هذا الرمز أكثر من مجرد تضخيم وتكبير لشكل القضيب. بالأضافة إلى تكريس هيكل العبادة بوضع رمز الإله فيه، كان يتم بناء الهيكل أو المعبد نفسه على شكل الرمز، بقدر الإمكان، وهذا ناتج في إنتصاب الأبراج؛ ما تزال بقاياها قائمة في أجزاء مختلفة من العالم، خاصة في بريطانيا العظمى.

كانت تبنى من الحجارة، وبسبب شكلها الدائري، تعرف اليوم بإسم "الأبراج المدورة Round Towers"، الأمثلة الأكثر بروزا لها، تلك الموجودة في إيرلنده، حيث تكثر هذه الهياكل القضيبية القديمة بأعداد كبيرة، بناها لاجئون من عابدي الجنس من بلاد فارس القديمة. تتفاوت هذه الأبراج إرتفاعا بين خمسين إلى مائة وخمسين قدما، وبقطر حوالي أربعة عشر قدما عند القاعدة، وتتناقص تدريجيا نحو القمة. بعضها مغطاة بسقف مخروطي الشكل، بينما تنتهي قمم أبراج أخرى بنقطة. وبهذا فهي تشبه أبراج الكنائس الضخمة التي تنتصب وحيدة. لكنها، وبكلّ أشكالها المتنوعة، يظل تصميمها الغير محتشم ظاهر دائما للعيان.

عندنا كلّ دليل يبين أن مثل هذه الأبراج القضيبية كانت منتشرة في كلّ أنحاء العالم القديم؛ لكن بمرور الوقت، أعطت هذه الصروح المحدّدة بالضرورة، مكانها لأشكال أكثر ملائمة للهندسة المعمارية، مع أن البرج، في بعض أشكاله المختلفة، كان قد بقي دائما ميزة رئيسية ومقدسة لكل مبنى ديني؛ وإلى يومنا هذا، وفي كافة أنحاء العالم المسيحي، تتميز بيوت العبادة الدينية بهذا الإسلوب.[21]

لا تعتبر الكنيسة كاملة دون برجها steeple، لكن قليلون هم من يدرك أنّ هذه الميزة المهمة والمميّزة في الهندسة المعمارية للكنيسة، إنما هي أثر بدائي لرمز الخالق، وأنّ وظيفته الأصلية كانت تقديس المكان الذي يعبد فيه إله الولادة. لم تكن الرموز القضيبية للخالق، أكثر وضوحا في أي مدينة من مدن العالم، منها اليوم في كلّ بلدة مسيحية، بتعدد أبراج كنائسها المدببة العالية، المرتفعة شاهقة فوق قمم البيوت في رمزية مجيدة وغير واعية، رغم ذلك، للخالق.

هناك العديد من الشعارات الإصطناعية والتقليدية الأخرى أستعملت في الأزمنة القديمة لتمثيل إله التناسل قد يشار إليها—مثل السهم، وعصا الراعي المعقوفة، والصولجان ثلاثي الرؤوس، الذي أصبح شعارا للكشافة المعاصرة، وهناك غيرها الكثير؛—لكنّها ليست بأهمية العمود والبرج، ولا برمزية الأجسام الطبيعية العديدة التي أختيرت كرموز قضيبية، بسبب بعض شبهها أو علاقتها المفترضة بالقضيب، في المظهر أو الصفة أو الخواص. وهكذا، فأيّ صخرة عالية، أو جبل، أو إرتفاع شاهق آخر، كان قد ألبس أهمية مقدّسة، ويزخر التاريخ القديم بإشارات عديدة إلى "جبال مقدّسة"، أو "جبال الله".

---

[21] مآذن المساجد الاسلامية، تتميز بشكلها الدائري وبطولها أيضا، ولها أيضا نفس التاريخ والهدف (المترجم)

والأشجار، أيضا، أعتبرت شعارات مقدّسة للخالق وخواصه. بعضها، كشجرة الصنوبر والتنّوب، بسبب إستطالتها وإستقامتها؛ وأخرى، مثل البلوط، بسبب قوّتها وحيويتها؛ وأخرى، كذلك، مثل التينة والنخلة، بسبب شكل أوراقها أو تأثير ثمارها الجنسي والتناسلي. ولذلك، نجد أن عبادة الشجرة، كنمط للفالوسية، إزدهرت على نطاق واسع جدا في التاريخ المبكّر للعالم؛ كانت عبادة شجرة البلوط عند كهنة الإنجليز القدماء Druids مثالاً شائعاً، وتحتوي كلّ السجلات المبكّرة تلميحات لبعض أنواع الأشجار والثمار لإمتلاكها أهمية دينية أو قضيبية معيّنة.

وكانت الحيوانات المختلفة كذلك قد تم تبنّيها بنفس المنوال كرموز إيحائية للقوة التناسلية للذكر، خصوصا تلك التي تمتلك قوّة جنسية غير عادية. وكان رمز الديك، والتيس، والثور شائعا في العبادة القضيبية، كممثلين جديرين بإله التناسل؛ كان التيس والثور خصوصا مقدّسين عند المصريين، الذين نظروا لهذه الحيوانات ليس فقط كرموز حيّة للإله أوزيريس، الخالق، بل كتجسيد فعلي له، وبالتالي فقد عوملت وعبدت كآلهة حقيقية. والثور المقدّس، كتجسيد للقوّة التناسلية للطبيعة، هو سمة مميزة للعديد من المعابد الهندية، حيث يخدم هذا الحيوان ويمجد بوقار وجدية مستحقّة.

أما التيس، ربما، أكثر الحيوانات شبقا على الإطلاق؛ فإن شهيته وفحولته التي لا تنضب تمكّنه من التزاوج ببحدود ثمانين عنزة في ليلة واحدة. ولذلك، فليس من المفاجئ أن يختار خصيصا كرمز مقدّس؛ مثل هذه القدرات الإستثنائية، كالتي عند التيس، لا بدّ وأن إسترعت إهتمام العقل المرهف للرجال قديماً، كإعلان صريح وواضح للقدرات اللامحدودة للخالق الأعلى نفسه.

يظهر هذا الشكل الحيواني بوضوح جدا في العديد من الإحتفالات الدينية، وحتى يومنا هذا، إستخدم في شعائر دخول الأعضاء الجدد للجمعيات السرية، بينما كان في الطقوس الباطنية للمصريين القدماء، التي يطلب فيها من الكهنة أن يكونوا منتمين إلى أسرار الجدي، قبل أن يسمح لهم بمعرفة أسرار إيزيس المقدسة. كانت هذه الأسرار مقدّسة جدا، ومحروسة بحماسة شديدة من قبل بعض الأتباع، ذلك أنه لم يعرف إلا القليل جدا فقط عنهم.

مثّل الإغريق التيس في إلههم بان Pan ومرافقيه الشهوانيين، من آلهة الغابات الستاير satyrs وآلهة الحقول فاون fauns؛ وهي مخلوقات نصفها إنسان ونصفها عنزة. كان بان رب إمضاء الوقت بالمتع الحسّية، وكانت تصاويره تمثله كمستحقّ للشرف الأعلى فيما يتعلق بهذه الأمور.

كانت الحمامة رمزا لباخوس Bacchus، بشخصيته "المُنجب الأول للحُبّ"، وكانت رمزا لروح القدس، أو للقوّة المنتجة المقدّسة، والتي جاء من خلالها إلى الوجود.

تعتبر السلحفاة عند الهندوس رمزاً فالوسياً مهماً. ربما أختير هذا الحيوان كرمز مقدّس لإله الخلق بسبب خنثويته الإسطورية،ـــخاصيّة للخالق ستحترم في مكان آخر،ـــوبسبب خصبها العظيم وإصرارها على الحياة. علاوة على ذلك، التواتر والسرعة التي تبرز بها وتسحب رأسها، تغيير من مظهر الراحة إلى مظهر القوّة والعمل، بالإضافة إلى شكل رأسها ورقبتها عندما يثاران، يقدم إقتراح سهل بالنسبة لعباد القضيب واسعي الخيال: اللنجام النشيط، أو الرمز خالق الذكر.

وبين الشعارات الطبيعية الأكثر أهميّة التي تبنّاها المصريون، كان نهر النيل، الذي يرمز لقوة الصب، والتخصيب والقوة المبدعة، الإله أوزيريس؛ وأعتبرت مياهه بنفس التبجيل والقداسة التي تُميّز عبادة نهر الغانج لدي شعب الهند اليوم.

وكانت عبادة النار، كرمزية للطاقة التناسلية، مورست أيضا على نطاق واسع؛ خصوصا من قبل الفرس القدماء.

لكن الشمس كانت أول الرموز الطبيعية للإله الخالق؛ كلّا، فالشمس كانت هي الخالق نفسه، الرب القدير. فهي التي أعطت الضوء والحياة إلى العالم؛ وإعتمد كل الوجود عليها. سكن أوزيريس الشمس كخالق قدير، ومن خلال هذا الوسيط القوي، أظهر قوّته إلى البشرية. فكان هو الإله الأعلى نفسه أو علامة مجده وقوته. ولذلك، فقد شكّلت عبادة الشمس، بالضرورة،ـــجزءًا مهماً ومميّزاً جداً،ـــمن العبادة الفالوسية (القضيبية).

ففي تبجيل الشمس، كخالق وحافظ للجنس البشري، يكمن أصل إعتقادٍ لاهوتي عالمي،ـــإعتقادٌ لا يعود إلى طائفة أو عصر بعينه، بل كان موجودا وكان أساس المعتقدات الدينية منذ أن أبصر الإنسان الأول عجائب هذا الكون، وراقب بتلهّف وحرص تبجيلي، الرحلة السنوية للشمس؛ راقب بفزع وخوف العالم يبرد ويموت في غياب واهب الحياة العظيم، في فصل الشتاء، ورحّب ببهجة وإستقبال حافل بالمديح، تجدد وإحياء الحياة، وكالشمس، يظهر الله الآب والمخلّص، ثانية في مجد وتألق قوّته.

الفصل الخامس

عبادة الجنس

القرابينُ الجنسية.

في الوقت الذي إعتبر فيه العالم القوّة الجنسية، بشكل عام دائما، أو الرجولة (أو الفحولة) هدية مقدسة، لكي تبجّل وتمارس بموجب هدفها المقدّس والغامض، نُظر إلى فعل الولادة ليس على أنه فعل طبيعي صحيح وضروري فحسب، بل كوظيفة مقدّسة ومقدّرة إلهياً لتحقيق الهدف الأسمى للحياة، وكان هناك دائما في المجتمع الإنساني، عنصر ديني صغير، لكنه قوي، يصرّ على نكران الطبيعة الجنسية، كشرط حقيقي وحيد للإتحاد مع الله.

لذلك، نجد في كلّ الأزمان وبين كلّ الشعوب أن كهنة أو زعماء بعض الطوائف الدينية ملزمون بالإمتناع عن كلّ العلاقات الجنسية. لم يكن هذا الحكم بين القدماء محصورا في الزهد أو العزوبة فحسب، بل كان يمتدّ غالبا إلى الإخصاء الفعلي للكهنة؛ عادة أنجزت أهميتها الأعظم في فريجيا Phrygia، إقليم قديم في آسيا الصغرى، بسبب الإحتفالات والمراسم الإستثنائية المرافقة لفعل الإخصاء.

شكّلت هذه الشعائر جزء من الإحتفال السنوي لمهرجان آتيس Attis وسيبيل Cybele؛ وكانت الأخيرة: ربة الأرض، أو الربة الأمّ، قد وقعت في حبّ الشاب الجميل، آتيس، التي إنتزعت منه قسم العفة ليصبح كاهنها، لكنه أخلف وعده لأجل حورية رائعة الجمال، فما كان من الربة إلا أن حرمته وسلبته عقله، وأثناء هيجانه قام بخصي نفسه؛ عند ذلك أمرت الربة بأن يكون كلّ كهنتها خصيانا فيما بعد.

وإحتفالا بذكرى هذه الأسطورة، كان يجري في موسم ربيع كلّ سنة، مهرجان صاخب وحشي، ومع ذلك فهو مقدّس وجدّي في نفس الوقت. يبدأ بهدوء وحزن، تمثيلا لأتيس النائم شبه الميت. وفي اليوم الثالث وصاعدا، يبدأ الفرح والمسرات، وتتمثل بمرح صاخب في غاية السعادة. يندفع كهنة سيبيل المسعورون في فرق، بعيون منهكة وشعر أشعّث، كالمحتفلين السكرى والنساء المجنونات. يحملون في يدٍّ رموزاً نارية ملتهبة، وبالأخرى يلوّحون بسكين مقدّس. يندفعون تجاه الغابة والوديان ويتسلّقون المرتفعات الجبلية، مع مواصلة عمل ضوضاء مروّعة وأنين وتأوه مستمر. الشراب المُسكر يجعلهم متوحشين. يضربون بعضهم بالسلاسل التي يحملونها، وعندما ينزف الدم على رفاقهم أو على أنفسهم يرقصوا بإيماءات طائشة وصاخبة، يجلدون ظهورهم ويثقبون أطرافهم وحتى أجسادهم. وأخيرا، وكتكريم لربتهم، يُدوِّرون السكين المقدّس حول أعضائهم التناسلية، ويدعون إلهتهم، مُبيّنين لها جروحهم المفتوحة، ويقدمون لها غنائم رجولتهم المحطمة. بعد التعافي من هذا الإخصاء الذاتي، يرتدى هؤلاء المبتدئين لباس المرأة، فيكونون جاهزين ليصبحوا كهنة، أو يفشلون في ذلك، ليأخذوا مكانهم بين مرافقي المعبد، للشغل في اللواطة

لمنفعة خزانة المعبد، في حين يُفضّل الرعاة مثل هذا الملذات عن تلك التي تقدمها النساء المكرّسات.

إنّ الدافع للتضحيات الجنسية من هذا النوع من المحتمل أن يكون رغبة للتشبه بالإله في شخصيته الخنثوية. وكما سنرى، كانت هناك معتقدات دينية عديدة آمنت أن الإله الخالق يجمع في نفسه صفتيْ الذكورة والأنوثة معا، أما الهدف النهائي للكهانة، فكان تحقيق التشبُّه أو الإتحاد بالله، وكان من المعقول أن مثل تلك الطريقة يجب أن تتبنّى عند بعض الطوائف. لم يكن الكاهن المخصي رجلا ولا إمرأة؛ وبرغم ذلك، وللمفارقة، كان كلاهما. فكان في الشكل والهيئة يمثّل الذكورة، بينما هو في الملبس وغياب الوظائف الذكورية النشطة، يمثّل الأنثى.

وفي بعض الحالات، على أية حال، وخصوصا في عصور تالية، أعطى هذا دافعا لإحدى الشخصيات الأخرى، وهذه كانت رغبةً لإسترضاء وإستعطاف الله، وذلك بالتضحية بأعظم البركات والمتع الإنسانية، بموجب الإعتقاد القديم والواسع الإنتشار، أن الرب يُسَرُّ دائما عندما تكون مخلوقاته بائسة جدا؛ ولذلك، كلما كانت التضحية عظيمة، كان سروره أعظم.

مارس كثير من المتعصّبين الدينيين عادة الإخصاء حتى في وقتنا الحاضر، كما وُصف كعقيدة أساسية لطائفة معينة من المسيحيين في روسيا، الذين آمنوا بأنّ الألفية لن تتحقق ما لم يُخصى كلّ رجال العالم. ولذلك، فهذه الطائفة تتكون بالكليّة من أشخاص يخصون أنفسهم بأنفسهم، وهناك المئات من المتحوّلين سنويا يذبحون أنفسهم بهذا الإسلوب. يمكنك إيجاد تبريرهم لهذه الممارسة في الآية الثانية عشرة من الإصحاح التاسع عشر لإنجيل متى، حيث يقول المسيح لحوارييه، "لأَنَّهُ يُوجَدُ خِصْيَانٌ وُلِدُوا هكَذَا مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَاهُمُ النَّاسُ، وَيُوجَدُ خِصْيَانٌ خَصَوْا أَنْفُسَهُمْ لأَجْلِ مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ. مَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقْبَلَ فَلْيَقْبَلْ".

وبشكل نادر في تاريخ المسيحية، لم تشكل هذه الآية سببا للتحريض على تقديم التضحيات الجنسية، بل كان الدافع الرئيسي لتقديم تضحيات من هذه النوع هو السعى للتخلّي عن كلّ المسرّات الدنيوية والمتع الفاسدة، كونها غير منسجمة مع العبادة الصحيحة لله. ولذلك، كافح مُحبّي المسيح الأوائل، وكثيرين ممن ساروا على خطاهم حتى يومنا هذا، لمقاومة علامات الجسد، لكي يحققوا تناولا روحيا وصافيا مع الله.

لم يُدلل هذا على الإخصاء بالضرورة؛ رغم أن كثيرين (من بينهم كان أوريجن Origen، أحد أكثر الآباء الأوائل شهرة) لجأو إليه كوسيلة وحيدة لنجاح إخضاع إغراءات الشيطان. أرادت الأغلبية إنجاز هدفها بأخذ نذور الزهد المطلق؛ فكلما عظمت الآلام التي تحمّلوها، كلما كان نصرهم ورضاهم الروحي أعظم. حيث كان تألم المخلصين، بالامتناع المطلق عن إرضاء رغباتهم وشهواتهم الطبيعية، مشهود

في التاريخ وبالحقيقة الفسيولوجية المشهورة، ذلك أن الزهد المطلق يرتبط في أغلب الأحيان بالتشوش العقلي والطبيعي، مؤلم وكارثي كتلك الآلآم التي تنتج من المتع الأكثر إسرافاً.

لا يزال هذا النمط من التضحية الجنسية، في شكله المعدّل للعزوبة، كمطلب كهنوتي، مظهراً مميزاً لحكومة الكنيسة ولعقائد جزء كبير من العالم المسيحي.

ولا تنحصر القرابين الجنسية للآلهة فى فئة المريدين الذكور فقط، لأنها كانت نظام ديني شائع عند العديد من الأمم القديمة، حيث كان يجب على كلّ إمرأة أن تضحّي بنفسها جنسيا إلى الآلهة؛ ليس، على أية حال، بأيّ من أفعال التشويه، بل بالسماح لراعي المعبد بمعانقتها.

ومتى ما رغبت المرأة أن تؤدّي هذا الواجب الديني تأتي إلى المعبد، وتضع نفسها تحت فرع شجرة هدال mistletoe معلّق، وكان هذا نمطا مألوفا للإشارة إلى إنّها في خدمة أول غريب يرغب في إقتناص الفرصة؛ وهي عادة، لا تزال في الحفظ الى يومنا هذا، في شكلها المعدّل بالتقبيل تحت الهدال، ومألوفة لنا جميعا كسمة مميزة للأحتفال بعيد الميلاد (الكريسمس).

معبد ميليتا Mylitta، في بابل، كان مشهوراً بشكل خاص بالقرابين من هذا النوع، حيث تتم هناك؛ والوصف التالي للطريقة التي كانت تؤدي بها هذه الطقوس مأخوذ من الوصف الذي أعطاه المؤرخ هيرودوتس Herodotus:

"كلّ إمرأة محلية المولد تلزم في وقت ما في حياتها بالذهاب إلى معبد ميليتّا Mylitta وتقدّم جسدها لمعانقة رجل غريب. والأكثر غني منهن، اللآئي يترفّعن عن أن يختلطن بالعامة، كن يحملن إلى المعبد في كراسٍ مغطّاة. وهناك، يبقين مقاعدهن مع أتباعهن العديدين من الخدم الذين يرافقونهن. لكن أغلبية النساء، اللاتي تلبسن على رؤوسهن حلقة تصنع من حبل، تُجلسن أنفسهن في جزء معين من الأرض المخصّصة للمعبد. وهناك، يجري سيل ثابت من النساء الواصلات والمغادرات. يتمشّى الرجال الغرباء جيئة وذهابا في الممرّات المشكّلة بالحبال المشدودة، ويختارون النساء التي تحسن في نظرهم. والمرأة التي تدخل لا تستطيع العودة إلى بيتها حتى يقوم رجل، لم تكن معه على إتصال جسدي من قبل، بالسجود للإلهة والرمي لها بقطعة فضة، ويصيح أنه كذلك، قائلا 'أتوسل إليك أيتها الربة Mylitta!'ـــكان هذا هو الإسم الآشوري لـ فينوس؛ـــوعلى أية حال، قد يعبث بالمبلغ المرمى إليها، لكن رفضه سيكون غير قانوني، لأن الفضة المقدمة لها تصبح مقدسة، وتصرف في أغراض دينية. تلزم المرأة هناك، بإتّباع من إختارها، وتذهب معه إلى أحد الكوات نصف المعزولة في المعبد، صمّمت لتكون في مرمى النظر. بشيء من التفصيل، وبعد أن أدّت واجبها نحو الإلهة، ترجع الى بيتها، ولا يمكن أن تخضع ثانية لهذه المحنة، مهما يكن المبلغ المالي المعروض

عليها. إن أولئك اللاتي كن محظوظات بما يكفي ليكن جميلات أو ذات ملبس رائع لا يبقين طويلا في المعبد. أما ربات البيوت وغيرهن الأقل حضاً فيجب أن يبقين لمدّة أطول، لأنهن لسن قادرات على إنجاز مهمّتهن بسهولة أكثر، ولهذا السبب تلزم بعضهن على السكنى هناك لثلاث أو أربع سنوات".

تشبه هذه الممارسة الدعارة المقدّسة الشائعة بين شعوب عابدي القضيب، وفي الحقيقة، إنّ الإتحاد الجنسي تحت هذه الرعاية المقدّسة قد إعتبر مشروعاً ومقدّساً، لكن هدفه بالطبع، كان مختلفاً عن ذلك الذي حكم مهنة نساء المعبد.

في أغلب الحالات، تكون النساء اللواتي يقدّمن أنفسهن هكذا في المعابد عذارى، ويكون هدفهن التضحية ببكارتهن للإله الراعي.[22]

لقد أعتبرت البكارة منذ الأزل مقدّسة إلهياً، وكانت ينظر لها عالمياً كممتلكات خاصة بالآلهة. إنزرع هذا الإعتقاد بقوة في عقول الرومان القدماء، وكان قانونهم لا يسمح لعذراء أن تعدم بالإسلوب العادي. والمرأة إن كانت عذراء، ومهما كان فداحة ذنبها، لا يمكن أن تخضع لعقوبة الموت بالأيدي العنيفة. والسبب أن بكارتها هي ملك الآلهة؛ وتحتوتي ضمن أحشائها الحضور الروحي للإله؛ ولذلك، وقبل إيقاع العقوبة الأخيرة، يكون من واجب منفذ عقوبة الإعدام أن يزيل "الإله" منها؛ ولهذا السبب يكون ملزما، كجزء من وظيفته، أن يسلبها عذريتها؛ ثم تخنق أو تحترق.

فكرة قدسية العزوبة هذه أدّت إلى تبني النصائح الدينية التي تفترض أنّ البكارة يجب أن تعطي إلى الله، وإلى يومنا هذا تؤدى مثل هذه التضحيات العديد من النساء المسيحيات، اللواتي يأخذن أيمانا غليظة بالعفة، ويحصرن أنفسهن في الأديرة، لغرض التخلّي عن حياتهن وبكارتهن إلى الله.

وعلى أية حال، لم يعتبر الزهد، عند القدماء، دائما من الوسائل الضرورية للتضحية بالبكارة. فالواجب الديني للنساء بحمل وإنجاب الأطفال لم يسمح في تلك الأيام بمثل هذه العادة. بالنسبة إليهم كان كافيا للمرأة أن تقدم فعلها الجنسي الأول إلى إلهها؛ ذلك أن الفعل الذي تخلّت فيه عن بكارتها المقدسة يجب أن يُكرّس إلى الإله أو إلهة دينها. كان هذا العمل يتم أحيانا بإسلوب كالذي وصفه هيرودتوس المؤرخ، لكنه يعتبر عند شعوب أخرى ضروري أن تكون التضحية خلال ممثل مقدّس للإله، أو بواسطة تمثاله المكرّس.

ووفقا لذلك، نجد أنه في بعض الحالات كان مألوفا للمرأة أن تتخلّى عن بكارتها لكهنة المعابد، بينما تقدم أخرى عذريتها إلى وثن الخالق. كان هذا الشكل الأخير شائعا في روما، حيث تفرض قوانين الزواج أنّه قبل إن تتم مراسم الأعراس، يجب

---

[22] إن فكرة العذراء موجودة عند كل شعوب العالم القديم تقريبا. ذلك أن الإنسان عرف أن خصوبة المرأة تكون في أوجها عندما تكون المرأة عذراء، وبهذا أعتبرت العذرية رمزا مقدسا، كون العذراء هي خصب دائم، ولهذا فإن العذراء هي، أو ترمز الى، إلهة الخصب وعبدت بهذا المعنى.

على العروس أن تضحّي ببكارتها إلى بريابوس Priapus. لذا، فقد كانت العادة، وفور ختام مراسيم الزفاف، أن تهتم العروس وزوجها، صحبة العائلة والأصدقاء، بالذهاب إلى تمثال بريابوس، وهناك، وبحضور زوجها والمرافقين، تأخذ درسها العملي الأول في العبادة البريابية، بواسطة فالوس حديدي أو حجري مقدّس.

كان هذا الطقس طقساً دينياً جاداً. فكانت العروس تأخذ إلى التمثال البريابي فور زفافها، ليس لأنّها يجب أن تعطي إلى إلهها حقّه فحسب، بل لأنّها قد تعود مثمرة بإتصالها بالمولِّد المقدس، وتكون قادرة على الإخلاص وأداء كلّ واجباتها التي لم تجرّبها كزوجة على أكمل وجه. يرافق المراسم تقديم الزهور وإراقة النبيذ، والصلاوات إلى الإله من أجل البركات الزواجية والأمومية.

|

الفصل السادس

الجوهرُ الأنثوي.

لقد إرتبط بالجوهر الذكري دائما أهمية أعظم بكثير من الجوهر الأنثوي للخلق. ولطالما أعتبر الخالق دائما وأبدا مذكراً. إنّ الإله الأعلى لكلّ نظام ديني هو مذكر.

هذا بسبب الحقيقة التي ترددت أنّ الدور الذي لعبته المرأة في ظاهرة الولادة ليس سلبيا وقاصر على الإستلام فقط، بل أنه أعتبر ولوقت طويل، مجرّد وظيفية. كانت المرأة ببساطة أثاثا في بيت الرجل، ووظيفتها الوحيده أن تنجب له أطفاله. ذلك أنّ إسهامها في إنتاج النسل، بأيّ قوّة مبدعة تملكها، لم يكن مُثمّناً. فقط، كان الدور المذكر ــــ العنصر النشط ــــ معترفا بفضله في فعل الولادة؛ ووحده كان المولّد. لم يكن العنصر النسائي تافها، لكنه مُنتِجٌ سلبي، يحمل ما صنع الذكر.

لكن بمرور الوقت صحت البشرية على إدراك حقيقة أنّ العنصر الأنثوي يلعب دورا مهم وأساسي في إعادة إنتاج الحياة؛ ذلك أنه ليس من الضروري فقط إتحاد الجنيس للولادة، بل أن إنتاج النسل يعتمد على التعاون والنشاط المتبادل بين كلا العنصرين، ولذلك، فإن المبدأ الأنثوي للطبيعة، بدلا من أن يعتبر ببساطة وسيط سلبي، رُفع وعُبد كعامل فعّال في لغز الخلق وإعادة الإنتاج.

في الحقيقة، كان هناك بعض من شعوب العالم القديم قد مارسوا هذه العبادة إلى أقصاها، فاعتبروا أن القوّة الأنثوية المنجبة كانت أرفع من الذكرية، وأن الأعضاء المنتجة الأنثوية كانت الرمز الحقيقي للإله الخالق. إدى هذا لظهور فئتين دينيتين كبيرتين: عباد الرمز الأنثوي، يوني yoni، وعباد الفالوس أو لنجام lingam. في أكثر السجلات قدما في العالم هناك بعض التلميحات المبهمة هنا وهناك لحروب دينية عظيمة في عصور ما قبل تاريخية ــــ حروب بين اليونيين Yonites واللنجاميين Lingamites؛ حروب كانت أكثر فظاعة ودمارا من أيّ حروب هزّت العالم في عصور تالية، والتي لم تستقرّ قضيتها الأساسية أبدا، بل إنحدرت من جيل لجيل ومن عصر لآخر، وحتى الى يومنا هذا، حيث نجد أن الإنسان ما يزال يقاتل ومستعد للمقتال، لإثبات أنّ إلهه هو الإله الحقيقي الوحيد.

تشير سجلاتنا وتقاليدنا الأسبق، على أية حال، إلى أن العبادة التصالحية لكل من العنصر الذكري والأنثوي كانت قد أصبحت عامّة قبل آلاف السنين؛ لأننا نجد في كلّ الأديان إعترافاً مقدساً بضرورة مشاركة الأنثي في عملية إنتاج الحياة. رغم أنّ الخالق، الله العلي، قد مُثِّل دائما بشخصه المذكَّر والقدير، ومن الحقيقي أيضا أنه لا يوجد في الخطاب الديني اللاهوتي لتكوين العالم إشارة الى أن الخالق قد برأ حياة إلى الوجود دون مساعدة العنصر الأنثوي. ففي بعض الأديان القديمة، كاليونانية والمصرية، على سبيل المثال، مُثّل الخالق مع قرين، زوجة سماوية، والتي عُبدت كإله تلت الخالق نفسه في المرتبة.

مرة أخرى، وكما في حالة براهما Brahma، الإله الأعلى للهندوس، مثّل هذا كإله خنثوي؛ ذلك أنه يوحّد كلا الجنسين في واحد، ويكون بهذا قادراً على الإتحاد الجنسي ضمن نفسه. إن فكرة الإله الخنثوي هذه فكرة شائعة جدا في المعتقدات القديمة، فبالإضافة إلى الهندوس اليوم، هناك تصاوير واقعية مألوفة لآلهة إمتلكت

أعضاء من الجنسين، أو تظهر لحية على وجه آلهة أنثى، كما قد يُرى في بعض صور فينوس. رسوم الآلهة الخنثى مألوفة في معابد الهند، والعديد من الشخصيات قد صمّمت بشكل متقن جدا، في محاولة للتمثيل الصحيح والرمزي للثنائية المقدسة للخالق.

جاء في أحد كتب الهندوس المقدّسة، "إن تلك الروح السامية في فعل الخلق أصبحت ضعفين؛ الجانب الأيمن كان ذكر، والأيسر أنثى". إنّ الرمز الرئيسي في تمثيل هذه اللاهوتية الثنائية-الجنس هي أحدى الشخصيات التي تتكون من أجزاء ذكورية وأنثوية، لكنها مزينة جدا بتصاميم باطنية وتفاصيل رمزية لتكون أبعد من فهم العقل المتوسط؛ والذي هو، في الحقيقة، الهدف عينه لهذا الرمز المقدّس؛ لأنه كما يقول الهندوس، "عندما يمتكن أحدهم من تفسير هذا الشعار اللاهوتي الخنثوي يعرف كلّ ما هو معروف".

في أديان أخرى، عندما يكون هناك إفتقار إلى شريك أنثوي، أو خالق يمتلك كلا الجنسين، سُجّل أن الحياة قد فطرت للوجود بالإخصاب المقدس للأرض أو للمياه، والذي هو عمليا إتحاد للعنصرين؛ لأنه، كما سنرى فيما يلي، كلا الأرض والماء، قد إعتبرتا دائما جنسا مؤنّثا ورموزا للوظيفة الخالقة الأنثوية. في الرواية الموسوية لسفر التكوين نقرأ، أن "رُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ"[23] ما يعني، حرفياً، أن الخالق لقّح المياه، أو العنصر الأنثوي للطبيعة.

باختصار، لا يستطيع العقل الإنساني أن يتخيّل الخلق أو إعادة الإنتاج بدون توظيف كلا العنصرين: الذكر والأنثى، ومع ذلك، فالأهمية الحقيقية للأخيرة قد أهملت تقريبا كليّا في بعض الأوقات، وعبدت بمدى أقل بكثير من السابق.

ذلك أن الحياة يمكن إنتاجها دون جماع الجنسين، ما كان أبدا ليصدق، لأننا نرى أنّ الله العلي والقدير لا يستطيع بنفسه أن ينجزها.[24] هذه القناعة مصوّرة كثيراً في الأساطير المختلفة المتعلّقة بولادة إله من عذراء. وفي كل الأديان التي تحتوي هذه السمة (وليس هناك دين لا يفعل)، وهي تعلّم أن الآبّ الأعلى قد عرف[25] العذراء معرفة مادية، وفعلية؛ ذلك أنه لم يصدّق أنّها حملت دون إتصال بالعنصر الذكري. هذا، وطبقا للإعتقاد العالمي، مستحيل، رغم القدرة الكلية للإله، بسبب تعارضه مع الطبيعة ومع الله.

مهما تكون الفكرة الروحية في الوقت الحاضر الخاصة بالإخصاب النظيف جدا لعذراء المسيحية، فمن المؤكّد، وطبقا لآيات في الكتاب المقدس، أنْ لا يوسف ولا مريم، ولا حتى كتّاب الإنجيل أنفسهم في الحقيقة، قد إفترضوا أبدا أنْ يمكن لإمرأة

---

[23] سفر التكوين 1: 2

[24] هذا ما يقوله المؤلف: "the Almighty and Supreme God could not himself accomplish it". لا حول ولا قوة إلا بالله. بل الله قادر على أن يخلق ما يريد دون وسيط، وهو قادر أن يصور الإنسان دون نطفة ورحم. (المترجم)

[25] تستعمل كلمة "عرف" مثل: "وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ" (تكوين 4: 1) في التوراة بمعنى "معاشرة الرجل للمرأة جنسيا".

أنْ تحمل بدون مساعدة مباشر من ذكر. حُفظت هذه الفكرة في الكنيسة لقرون بعد ذلك، وعُرضت بواقعية في لوحة "صلوات العذراء المباركة"،[26] التي رسمت تحت إشراف الكنيسة، في فينيسيا، سنة 1542. تمثّل هذه اللوحة البتول وهي تسجد أمام مذبح، وذراعيها وعينيها مرفوعة للسماء، حيث تنظر الى حشد متألق من الملائكة تتوسطهم الحمامة المقدّسة، بينما ينحدر شعاع ساطع من الضوء ويدخل شخصها، أمامها صورة للمسيح الطفل، التي حملت به بشكل مقدس وإعجازي.

قدسية وإعجوبة ولادة إبن من عذراء لم تكمن في الحقيقة في حمل العذراء، بل في أنّها حملت من خلال الإخصاب المقدس لله؛ وأن الله إختارها لغرضه المقدّس. كثيرا ما تتردد روايات عن إتحادات بين الآلهة والنساء في الأديان القديمة، وتعتبر دائما تقديسا للمرأة، ترفعها فوق أقرانها الفانيات، وتهب طفلها صفات شبه إلهيه؛ وكشاهد أنظر، أساطير الميثولوجيات الإغريقية والرومانية، والكلام عن الحمل النظيف جدا وولادة كريشنا Krishna، المنقذ الهندي، والبوذا Buddha، مؤسس أحد المعتقدات الدينية الأعظم في العالم.

إن هذا الإتحاد الضروري بين العنصر الذكوري والأنثوي المعترف به عالميا، لغرض إنجاز الهدف المجيد لإعادة إنتاج الحياة، أدّى، بالطبيعة، إلى عبادة الجوهر الأنثوي كنظير للجوهر الذكوري، كما وجد في العديد من الأديان المبكّرة. إيزيس، الإله الخالق الأنثوي العظيم للمصريين، عبد بتبجيل يساوي بالكامل ذلك الذي منح إلى رفيقها المذكر، أوزيريس؛ ومع ذلك لم تعطي كلّ الأمم الإله الأنثوي مرتبة عالية جدا، ولا يوجد شعب لم يكن عنده إلهة الحياة، ملكة السماء، فريجا Friga، أفروديت Aphrodite، أو إحدى أعظم تشكيلات الصور والأسماء التي عرفت لتقديس المبدأ الأنثوي.

في الوقت الذي أدركت فيه البشرية الأهمية الواسعة للطبيعة الأنثوية، وعبادتها كعامل حيوي في الهدف المقدس للحياة بأسرها، لم تعطها، كقاعدة، مرتبة مساوية لتلك التي أسندت للجوهر الذكوري العظيم. لطالما أعتبر الخالق المذكر دائما أعلى في قوّته ومقدراته، يُركن إليه بدأ كلّ حياة ونشاط؛ إنه هو النشيط، والمؤثر، والقوّة المولّدة للطبيعة، بينما الأنثى: هي العنصر السلبي المستقبل، مهلك الحياة وحافظها.

كما في عصور ما قبل التاريخ، وكذلك يوجد اليوم، بعض الطوائف التي تعتبر وتعبد الجوهر الأنثوي على أساس أنه أرفع من ذاك الذكوري. من هذه الطوائف، عُبّاد ساكتي Sacti، الإله الخالق الأنثوي الأعلى عند الهندوس، وتتضمّن عبادتها تبجيل الفرج، كرمز وتجسيد مقدّس لها. وعند تبجيلها ذهنياً، يستحضر المتعبد رمزها الذي يدعى عموما يوني *yoni*، الذي يجب أن يرى فيه حرماً مقدساً، عليه دخوله وبداخله يعبده.

[26] "*Rosary of the Blessed Virgin*"

تتضمّن المراسم الرئيسية لهذه الطائفة خدمة دينية صمّمت لغرض إظهار وقار وتقدير للقوّة الأنثوية المقدسة.

تتطلّب هذه المراسم حضور بنت صغيرة جميلة وعارية، كممثلة حيّة للإلآهة. وتختار عموما من بين مجموعة بنات الرقص المكرّسات الملحقات لخدمة المعبد، وتلك التي تختار هكذا يثمن لها شرف خاصّ، تقديراً لجمالها وإنجازاتها وقدراتها، شرف يجب أن يكون من أعلى الدرجات لتكون جديرة كممثلة طاهرة للإلهة. يقدم المتعبدون المخلصين لهذه البنت اللحم والنبيذ، ويتلو ذلك رقص وترنيم للتراتيل. وكفعل ينم عن أسمى علامات الولاء، وكمثالية للوسائل المقدسة التي تنتج بها الحياة، يُنهي المتعبدون المؤمنون المراسم بتقديم عطايا جنسية إلى الممثلة المقدّسة للإلهة، التي تُلزم بتوزيع نعمها (الجنسية) على كلّ المحبّين الذين يرغبون بها إجلالاً لخالقهم.

كان الإحترام المقدّس القديم للقوّة الأنثوية، إلى حدّ ما، بسبب تأثيرها السحري على الطبيعة الذكورية. فمن خلال المرأة تُثار العواطف الجنسية المقدسة؛ وإبصار أو تفكّر الرجل بها تنشط طبيعته وقواه. لقد أحترم تأثير التنشيط والإثارة الناتج عن رؤية أو لمس المرأة، وخصوصا العذراء، في لباس الطبيعة، أيما إحترام وتوقير، كعلامة للقوّة الأنثوية المقدسة. فقد أدركت فعاليتها عالميا، وقيل لنا بأنّها إستخدمت لنفخ الحياة والحماسة فى الملك داود، بعدما أصباب من العمر ردحا: "وَشَاخَ الْمَلِكُ دَاوُدُ. تَقَدَّمَ فِي الأَيَّامِ. وَكَانُوا يُدَثِّرُونَهُ بِالثِّيَابِ فَلَمْ يَدْفَأْ. فَقَالَ لَهُ عَبِيدُهُ: لِيُفَتِّشُوا لِسَيِّدِنَا الْمَلِكِ عَلَى فَتَاةٍ عَذْرَاءَ، فَلْتَقِفْ أَمَامَ الْمَلِكِ وَلْتَكُنْ لَهُ حَاضِنَةً وَلْتَضْطَجِعْ فِي حِضْنِكَ فَيَدْفَأَ سَيِّدُنَا الْمَلِكُ" (ملوك الأول 1: 1-2).

ومثل تلك الخواص التي نسبت للجوهر الذكوري، نسبت خواص العنصر الأنثوي في بعث الحياة الى الإلهة، الحاكمة الأنثوية راعية الخصب والقوّة الجنسية والحبّ؛ وأصبح العضو (يوني)، الذي من خلال قواه كانت تتجلى الإلهة، رمزها المقدّس، وعُبد بنفس الدافع وبنفس التبجيل كالقضيب تماما. كان العضو الانثوي في نفسه، على أية حال،ــــوبعيدا عن أهميته الدينيةـــــمحترما بتبجيل أعظم من نظيره الذكوري؛ وكان يُخفىٰ بعناية أشد، ويعامل على أنه يُخفي أسراراً أعظم. كان يعتقد أن إبصار اليوني الحي، خصوصا فرج العذراء، من الفضائل السحرية، ومرآه فأل حسن مؤكد.

بقية من الإحترام المقدس السابق المتأثر بهذا التمثيل للمعبود الأنثوي لا زال موجوداً بين بعض الطوائف في الهند، وفلسطين وبعض أجزاء أفريقيا. يقوم المخلص، على ركبة مثنية وبصلاة صامتة، بتقديم عطايا إلى يوني غير مغطّى، جزء من الطعام أعطته إياه إمرأة، قبل أن يذوقه، الذي تقبله وتأكله كدليل على

خلوه من السمّ. هذه المراسم ببساطة طريقة جدّية للقسم على الصداقة المتبادلة، ولها معنى يماثل النمط القديم للقسم بمسك القضيب.

عبادة الجنس

الفصل السابع

الرُّموز الأنثوية.

كان العضو الأنثوي الظاهري، اليوني yoni، الرمز الأنثوي للخلق، أكثر صعوبة في تمثيله بشكل طبيعي دقيق مجسد، كما كان يصور الفالوس، أو اللنجام؛ ولذلك، ومنذ البداية، صوّر هذا الرمز تقريبيا بأشكال تقليدية، ولم يتطور، بشكل

نادر، إلى أجزاء أخرى أسهل تمثيلا ووصفا في تشريح الجسم الأنثوي، كالصدور: *mons Veneris*، مثلا، وغيرها.
أما التصميم الأساسي لتمثيل اليوني فكان واحداً، ذلك الذي عرف باسم أشيرة[27] *Asherah* والذي يترجم ويشار إليه في الكتاب المقدس بكلمة سارية، أو سواري.[28] هذه السارية، التي كانت رمزا لعشتروت[29] Ashtoreth، أو لإتحاد البعل Baal وعشتار—إلهَيْ التناسل الذكر والأنثى عند الآشوريين،—كانت تصنع من الخشب عموما، وكان لها في مركزها فتحة أو شقّ، الذي إعتبرا مقدّساً بشكل بارز، كونه **باب الحياة**. فوق هذا الشقّ يوجد تمثيل رمزي للبظر، مقسّم إلى سبعة أجزاء، وحول باب الحياة نحت لخصل شعر، عددها ثلاثة عشر خصلة، تشير إلى فترات الخصوبة السنوية للمرأة.
توجد تصاميم كثيرة جداً لهذا الوثن في منحوتات نينوى وبابل. وهي بشكل دائم تقريبا تصوّر إستلامها التبجيل من الملك ومرافقيه، الذين يحملون في أيديهم أكواز الصنوبر المخروطية الشكل وقرابين جنسية رمزية أخرى. وفوق السارية، يقبع شكل مجنّح—رامي السهام السماوي، بقوس وجراب ملئ بالأسهم، لأجل إستعمال كلّ من يرغب بحماسة مقدسة في الطقوس الختامية للعبادة، والتي تتطلّبت أن يتحد المحبّين للإلهة في جماع جنسي، كتكريم ملائم لها؛ يجري داخل كوخ صغير يقع على مقربة من الوثن.
نحن نرى في رامي السهام الآشوري نموذجا أولياً لـكيوبيد Cupid الإغريقي، إله الحبّ الصغير، أو رغبة جامحة، بقوسه وأسهمه؛ حيث كان السهم رمز قضيبي قديم جدا.
طبقا للعهد القديم في الكتاب المقدس، كان الإسرائيليون يدخلون باستمرار في عبادة الأصنام بخدمة البعل والسارية. وهجر العديد من ملوكهم إيمان آبائهم ببناء المذابح والمعابد والتماثيل، وحرق البخور للآلهة القضيبية الخاصة بالكلدانيين، والآشوريين، والمصريين وغيرهم. وكانوا مُصرّين جدا في عبادة السارية، التي نصبت "عَلَى كُلِّ تَلّ مُرْتَفِعٍ وَتَحْتَ كُلِّ شَجَرَةٍ خَضْرَاءَ".[30] هذه السواري تحاط عادة بالستائر أو الأغطية، تشكل خيمة أو كوخا شبه مستور، يأتي إليها المحبّون،

---

[27] أشيرة: زوجة "إيل" كبير آلهة الفينيقيين. وهما والدي الآلهة الأخرى، مثل بعل إله المطر والرعد ويسمى أيضا هداد، وملقرت في صور، وبعل حمون في قرطجنة، وعنت إلهة الحرب والحب، وعشتاروث إلهة التناسل، وأدونس [أو تموز] إله الخصب والربيع، وداجان [أو داجون] إله القمح، وأشمون إله الشفاء.
[28] في النسخة العربية منه تستعمل كلمة سارية أو سواري، وهي الغالبة. أما في الانجليزية *grove* أو *groves* (=بستان). أنظر على سبيل المثال: [(تكوين 21: 33) =أثل، وهو نوع من الشجر ينمو في فلسطين]؛ [(خروج 34: 13) =بستان]؛ [(تثنية 7: 5) =سارية]
[29] هي عشتار في بابل وآشور والاقليم السوري؛ ربة الامومة. وهي نفسها الإلهة أينانا عند السومريين (الإلهة الأم العذراء)، وكذلك سماها اليونانيون أسترتي.
[30] سفر الملوك الأول 14: 23

ذكورا وإناثا، لإكمال الفروض الجنسية لعبادتهم، بعد أن يدهن الوثن ويوضع أمامه هدايا من الثمار والزهور والبخور، مع الدعاء وإنشاد التراتيل.

وحكماً من مراثي الأنبياء، ومن تلميحاتهم لبعض الممارسات التي إنغمس فيها بني إسرائيل، يتضح أن عبادة البعل والآلهة القضيبية الأخرى للقبائل المجاورة، كانت عبادة ذات طبيعة جنسية جدا، وإنجذبوا بقوة أكبر إلى الإنحراف الديني لتلك الأيام، أكثر من تمسكهم بالعبادة الأكثر إعتدالا التي وصفت في قوانين موسى. ولوصف تخطيطي لتلك "الفضاعة" الناتجة عن الإتصال الديني للشعب اليهودي مع الآشوريين والكلدانيين والبابليين، فللقارئ أن يرجع إلى الإصحاحات 16 و 23 من سفر حزقيال.

كان الشكل الأكثر شيوعا للرمز الأنثوي ذلك الذي صنع لتمثيل **مونس فينيريس** *mons Veneris*.[31] مُثّلت هذه بالتلال والأهرام، بقايا موجودة في كلّ أنحاء العالم، بأساليب وأحجام مختلفة؛ أكثر أمثلتها وضوحا هي أهرام مصر، التي ما تزال أحد عجائب العالم، ومع ذلك، فإن عدد قليل نسبيا من الناس يدركون الأهمية الدينية، والجنسية لهذه الهياكل الرائعة.

فقد نصبت تكريما للإلهة الخالقة الأنثي، وليس هناك دافع آخر غير ‘الدين’ كان يمكن أن يكون دافعاً لبناء مثل هذه الأنصاب العملاقة. لقد وضعت تفسيرات كثيرة ومختلفة لهدفها وأهميتها، والنتيجة التي وصلنا لها هي إعتبارها ببساطة قبوراً أو مراصد عظيمة، كما لو أن القدماء لم يكن عندهم شيء أهم ليفعلوه، أو لم يكن عندهم دوافع أعلى، من بناء هذه الهياكل الرائعة لغرض وحيد لتكون أضرحة، أو مراصد مبعثرة في جميع أنحاء البلاد، وكثير منها قريبة من بعضها.

عندما نراعي أن هرم خوفو Cheops، على سبيل المثال، يغطّي مساحة أربعة عشر فدان تقريبا (56,656 م ^{2})، وأنّه كان في الأصل بإرتفاع أربعمائة وتسعة وسبعين قدما (146 م) ويحوي تسعون مليون قدماً مكعّباً من الصخور، والتي هي كتل هائلة الحجم، كلّ منها كان يستلزم قلعها ونحتها، وترتيبها وحملها إلى الهرم، وكان هذا منذ (ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح) عندما كانت الإختراعات الميكانيكية من النوع الأكثر بدائية،ـــفعندما تأخذ هذه الحقائق في عين الاعتبار، يكون من اللاعقلاني إفتراض أنّ هذا العمل الضخم قد صُمّم لغرض تافه.

صحيح أن كلّ أهرام مصر بنيت لتكون أضرحة، لكن شكلها وأبعادها الهائلة كان نتيجة رغبة دينية لتقديس أماكن إستراحة الموتى، ولتشريف الخالقة الأنثى.

الأهرام، أو بقاياها، تجتمع في نمط يماثل تلك التي في بابل، وفي أجزاء مختلفة من إيطاليا والهند، وفي الصين واليابان. وبالإضافة إلى مصر، فالأهرامات كثيرة جدا في المكسيك وأجزاء أخرى من أمريكا. ومنها، تلك الأهرام المكسيكية القديمة

---

[31] ثديي فينوس، أي شكل يشبه ثديي المرأة

والتي هي أكبر مساحة، وأبعادا، من أكبر الأنصاب المصرية. لكن، وبخلاف تلك المصرية، فقد صمّمت عموما لإستعمالها كمعابد، مع أن أهميتها الدينية وغرضها الرمزي كان واحداً.

الهرم، كان الشكل الموسّع أو الإصطلاحي للتلّ، والذي كان الرمز الأساسي لمونس فينيريس *mons Veneris*. بقايا التلال من صنع البشر، كشعارات دينية، شائعة جداً في العديد من أنحاء العالم؛ ولكن، كقاعدة، كان التوقير والتبجيل الأعظم يقدم دائما للتلال والمرتفاعات الطبيعية، خصوصا تلك ذات الشكل واضح المعالم. ولذلك، فقد إعتبرت مثل هذه المرتفاعات، بقعاً مقدّسة، وكرّست للعبادة؛ وأعتبرت المذابح والمعابد أكثر قداسة إذا وضعت فوق تلّ مرتفع، ونحن نعلم من العهد القديم كم إرتبطت "المرتفعات" و"الآكام المرتفعة، والجبال المسنمة" بحميمية في عبادة الإلهة الأنثى.

هذا الإحترام للمرتفعات الطبيعية كثيرا ما إمتد إلى الجبال، وهناك طوائف إلى يومنا هذا تعبد الجبال كرموز للإلهة الخالقة الأنثى. ففي ألمانيا هناك جبل مشهور يسمى هورسيلبيرغ Hörselberg، ويدعى شعبياً فينوبيرغ Venusberg، أو جبل فينوس. هذا الجبل مرتبط بأسطورة تاننهاوزر Tannhäuser، وأولئك الذين عندهم علم بالأسطورة سيدركون الأهمية الكاملة للإسم المعطى للجبل. ففي العصور القديمة بُجِّل هذا الجبل بشكل خاص، ليس فقط بسبب شكله، بل أيضاً بسبب الكهف الكبير الذي يفتح فيه.

فأي فُرجة طبيعية نُظر إليها دائما كرمز مقدّس جدا. أيّ حفرة أو كهف، أيّ شقّ أوصدع، أيّ فتق طبيعي، كُرّم بتبجيل مقدّس، كرمز مقدّس لأمّنا الأرض المقدسة. ومنذ الأزل، اعتبرت الأرض كمؤنّث؛ الأمّ الخالقة لكل شيء؛ قرينة الشمس، الاب القدير. وطبقا للعديد من أساطير الأولين، كان الجنس البشري قد حُمل به في رحم الأمّ الأرض، وأن أول رجل وإمرأة قد ظهرا من العالم السفلي. وإلى يومنا هذا ما نزال نتكلّم عن البشر كمخلوقات أرضية (من الأرض)، من الأرض وإليها نعود؛ وفي طقوس دفننا لموتانا، لا نقوم إلا بمواصلة ممارسة قديمة، يعود أصلها الى إنسان ما قبل التاريخ، هي إرجاعٌ مبجلٌ لأطفال الأرض الى رحم أمهم.

حالما أصبحت فكرة أن عالمنا "عالم أنثوي" فكرة عامّة، أصبح من المعقول تقبل فكرة أن تلك ‘الفوّهات الطبيعية’ يجب أن تعتبر بشكل نموذجي، كذلك الجزء الذي يميّز المرأة، وهذا الإحترام الديني لتلك الفتحات الأرضية أدّى بطبيعة الحال الى مثل ذلك التبجيل للشقوق أو التصدعات في الصخور، وأخيرا لتلك الفتحات أو الفجوات الإصطناعية، وبالأخص تلك المرتبطة بأماكن العبادة. ففي دهليز لكنيسة في روما يوجد حجر كبير مثقوب، قيل أن الرومان كانوا يضعون أيديهم في فتحته بينما يؤدون القسم الرسمّي؛ ممارسة تماثل تلك التي عند العبرانيين.

عند الولادة، مخلوق جديد يخرج من الأمّ، لذا من المفترض أنّ الخروج من شقّ أرضي مقدّس أو آخر، كان مكافئٌ لولادة جديدة—البعث والتجديد،—وفي العديد من الأماكن، كان تطهير الأطفال بإمرارهم خلال الفتاحات والشقوق تقليد معروف لدى الآباء والأمهات.

الفتحات الإصطناعية، المصمّمة لأغراض التطهير، ما تزال موجودة في بعض الأنظمة الدينية القديمة في الجزر البريطانية والهند؛ تكون الحجارة في جزء معين من المبنى مرتّبة جيدا لتترك فتحة تحتها، يمرّ خلالها المتعبّد، وهكذا يُطهّر، أو "يولد من جديد".

ما تزال عادات مماثلة تزاول في الهند. فعلى جزيرة بومباي Bombay، في تلّ مالابار Malabar Hill، هناك صخرة يوجد على سطحها شقّ طبيعي، يرتبط بتجويف يفتح تحته. يستعملها الجنتوس Gentoos كوسيلة تطهيرية، والذين يقولون أنها تُنجز بالدخول في فتحة بالأسفل والخروج من تجويف في الأعلى. هناك ممارسة مماثلة لهذه تلاحظ على نطاق واسع أكثر في شمالي الهند، حيث يوجد هناك مكان مشهور يذهب اليه العديد من الحجاج، وذلك للعبور خلال فتحة في الجبل؛ تعرف هذ الممارسة بـ"العبور خلال رحم البقرة". يتم هذا الطقس التطهيري في أماكن أخرى بالعبور خلال مركّب إصطناعي على شكل بقرة؛ حيث يدخل المريدون من الفم ويخرجون من المؤخّرة.

لطالما أعتبرت البقرة دائما رمزا مقدّسا جدا للإلهة الأنثى. لقد عبد المصريون البقرة كتجسيد لإيزيس بتبجيل مساوٍ لذلك المقدّم للثور. وإحتوت العديد من المعابد القديمة المكرّسة للإلهة الأنثى، تماثيل ذهبية للبقرة أو العجل، وكلنا نعرف مدى التبجيل الذي قدمه الإسرائيليون لهذا المخلوق كرمز مقدّس. "وَلَمَّا رَأَى الشَّعْبُ أَنَّ مُوسَى أَبْطَأَ فِي النُّزُولِ مِنَ الْجَبَلِ، اجْتَمَعَ الشَّعْبُ عَلَى هَارُونَ وَقَالُوا لَهُ: قُمِ اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا"[32] (خروج 32: 1). وعندما صُنع تمثال العجل من الأقراط الذهبية التي فى آذان الشعب، عُبد بفرح وصخب عالٍ، كممثل للإله الذي أخرجهم من أرض مصر.

وبعد سنوات تالية، صنع رحبعام Rehoboam، ملك إسرائيل، عجلين من ذهب، وقال للشعب، "هُوَذَا آلِهَتُكَ يَا إِسْرَائِيلُ الَّذِينَ أَصْعَدُوكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ"؛[33] ذلك يبيّن بوضوح أنّ البقرة أو العجل قد إعتبرا بإصرار رمز مقدّس، بالرغم من أن عبادة مثل هذه التماثيل قد حرّمت في توراة موسى.

---

[32] في الاسلام، السامري هو من صنع العجل الذهبي المسبوك وليس هارون أخي موسى، رغم أن التوراة تصر على أن هارون قال ردا على سؤال موسى: "مَاذَا صَنَعَ بِكَ هذَا الشَّعْبُ حَتَّى جَلَبْتَ عَلَيْهِ خَطِيَّةً عَظِيمَةً؟" "فَقَالَ هَارُونُ. فَقَالُوا لِيَ: اصْنَعْ لَنَا آلِهَةً تَسِيرُ أَمَامَنَا، لأَنَّ هذَا مُوسَى الرَّجُلَ الَّذِي أَصْعَدَنَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، لاَ نَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَهُ. فَقُلْتُ لَهُمْ: مَنْ لَهُ ذَهَبٌ فَلْيَنْزِعْهُ وَيُعْطِنِي. فَطَرَحْتُهُ فِي النَّارِ فَخَرَجَ هذَا الْعِجْلُ". (خروج 32: 21-24)

[33] سفر الملوك الأول 12: 28

كان الرمز المساوي في الأهمية لتلك الفتحة أو الفجوة، والأعظم قداسة وأهمية، هو الصندوق أو التابوت أو السفينة، أو أيّ حاوية أو مستودع مكرّس. كان اليوني هو الإناء، الفُلك المقدس، للقضيب؛ في رحمه الخفي يكمن لغز الحياة. كان داخله، الذي وحده القضيب، الخالق، يمكنه وصوله، قدس الأقداس. وكان هذا (الرحم) يمثّل بالسفينة، الرمز الأقدس في عبادة وطقوس القدماء. وكانت السفينة هي الجسم الأكثر قداسة في إرتباطها بعبادة أوزيريس، والتي إحتوت الرمز المقدس للحياة.

وكان تابوت الشهادة اليهودي،[34] الذي يشبه جدا في حجمه وإسلوب بناءه السفينة المقدّسة عند المصريين، السمة الأكثر أهمية وقداسة في حياة وعبادة بنى إسرائيل. لقد أعدّ الرب بنفسه خطة بناءه، كما نقرأنا في الإصحاح الخامس والعشرون من سفر الخروج، وتحتوي التوراة إشارات عديدة لقدسيته العليا وقداسته.

كان دوما تحت حراسة مشددة وتبجيل عظيم من الكهنة، وعندما ينتقل من مكان لآخر، كان يُحمل على أكتاف اللاويّين، ويحضر بموكب رسمي كبير، "بِهُتَافٍ، وَبِصَوْتِ الأَصْوَارِ وَالأَبْوَاقِ وَالصُّنُوجِ، يُصَوِّتُونَ بِالرَّبَابِ وَالْعِيدَانِ (القيثارات)."[35] حُكي لنا في الإصحاحات الخامس والسادس من سفر صموئيل الأول عن الضيقة الشديدة التي وقع فيها الإسرائيليون عندما حجزه الفلسطينيون، وعن تلك العقوبات الحادّة التي أوقعها الرب على الفلسطينيين، في النهاية. فقتل الرجال ودمرت المدن بقسوة وصرامة عظيمة، حتى إستعيد التابوت؛ وعندما نظر خمسون ألف رجل من اليهود بوقاحة تجديفية لمحتوياته المقدّسة، كنتيجة لبهجتهم بإستعادته، ذبحهم الرب كلّهم دون رحمة (صموئيل الأول 6: 19).

كانت السفينة (الفلك) الرمز المقدس للأرض، الجوهر الأنثوي؛ الرحم الذي يحتوي بذرة كلّ ذي طبيعة متحركة، وإعتبر كالأمّ العظيمة التي يأتي منها كلّ شيء. كانت كرمز الخلاص؛ مكان الأمان، الإناء المقدّس للحكمة والقوّة المقدسة؛ لذلك، كان تابوت العهد المسكن المقدّس ‘لألواح الشريعة’ التي إستلمها موسى من الرب. إحتوى أيضا عصا هارون،[36] التي قفزت إلى الحياة، وتبرعمت؛ وهي تحمل فكرة الخصوبة الرمزية، وهذا يجعل من السفينة (أو التابوت) مستودعا

---

[34] ويسمى أيضا: ‘تابوت الرب’ و‘تابوت الله’—صموئيل الثاني؛ ‘تابوت عهد الرب’—ملوك الأول. والتابوت يأتي بمعني الصندوق، الفلك، السفينة (=ark, chest, ark of convenant)

[35] سفر الملوك الأول 15: 28

[36] عصا هارون: العصا التي كانت في يدي هارون، الكاهن الأكبر، وهبت قوّة عجائبية أثناء الأوبئة التي ضربت مصر قُبيل خروج بني إسرائيل. بهذه الوظيفة، كانت عصا موسى فعّالة على حد سواء. ففى مناسبتين، على أية حال، السمة الوحيدة المميزة لقوّتها الذاتية، عندما لم تكن في قبضة مالكها، عرفت بعصا هارون. حيث إبتلعت مرة ما ألقى السحرة المصريين، وفي آخر أزهرت وأثمرت وأفرخت في خيمة الإجتماع، كدليل صادق خاصّ لكهانة قبيلة لاوي. وإحتفالا بذكرى هذا القرار، وضعت العصا مرة ثانية "أمام الشهادة " (عدد 17: 10). يفيد تقليد لاحق (عبرانين 9: 4) أن العصا ظلّت في تابوت العهد. إنّ الحقيقة الرئيسية، على أية حال، هي ما يؤكّد أنّ العصا قد بقيت في خيمة الإجتماع كأثر للكهنوتية الهارونية. [*The Jewish Encyclopedia*، J, F. McC.، مجلد 1، 1804، ص 5]

لرمز الإله الخالق. وإلى يومنا هذا يحتفظ التابوت/كأس القربان في الكنيسة المسيحية برمزيته الدينية؛ فوعاء القربان الكاثوليكي الروماني، الإناء المقدّس لجسم المسيح، ليس إلا تكييفا للتابوت، وله نفس الغرض والأهمية كالرمز القديم.

إحتوت سفينة المصريين رموز الخالق الثالوثي؛ الفالوس، والبيضة، والثعبان؛ الأول يمثّل الشمس، الجوهر المنتج الذكوري، الخالق النشيط؛ الثانية، هي الحافظ؛ المبدأ الأنثوي السلبي؛ والثالث، المدمر، أو الناسخ. كانت البيضة، كرمز للجوهر الأنثوي، رمز شائع جدا في كلّ المعتقدات القديمة. لقد أعتبرت وعاءً يحوي بذرة كلّ حياة؛ صورة أنتجت كلّ الأشياء بداخلها؛ رمز تجديد الحياة. لا تزال البيضة، كرمز لإعادة الإنتاج أو البعث، مستخدمة في الإحتفال بعيد الفصح المعاصر، كما كانت في إحتفالات مماثلة في كلّ العصور الماضية.

كان القمر، مُستقبِلاً فقط كالأرض، يتعبر بطريقة مماثلة مؤنّثا، ولم يكن، بشكل نادر، يعبد كإله فعلي—الإلهة القمرية. فالقمر يبقى دوما بدون تغير من سنة الى أخرى، بدون تغير في العمر ولا يضعف بالإستعمال، وإعتقد القدماء أن القمر هو الزوجة الدائمة-العذرية للشمس، والأمّ العذراء لكلّ الآلهة الأقل مستوى. أدّى هذا بالطبيعة لتبني فكرة أن القمر، كأحد الرموز الهامّة، وبشكل غريب، هو الجوهر الأنثوي للطبيعة؛ وأهم هذه الرموز هو الهلال، رمز للبكارة. فالهلال هو أحد أكثر الرموز الأنثوية شيوعا وإنتشارا، وحتى يومنا هذا، تلبس النساء في إيطاليا تعاويذ بشكل الهلال، وتعتبر ملائمة بشكل خاص للعذارى والنساء الحبلى.

غالبا ما يصوّر الهلال كرمز للقوّة التناسلية الأنثوية، في الرسوم التصويرية لليوني yoni،[37] بواقعية أكثر مما يوجد في صوره. وهذا يصدق خصوصا إذا ظهر في مكانه على الشكل الأنثوي، كما هو شائع على نقوش العملات المعدنية القديمة، والمزهريات، والمنحوتات وفي الأشكال والتصاميم على جدران المعابد. كثيرا ما تصوّر النساء، بأعضاء تناسلية خارجية مضخّمة، على الفوانيس المقدّسة وأدوات الكنيسة الأخرى؛ وحتى قبل وقت قصير مضي، كانت عدّة كنائس في إيرلندة تملك على مداخلها الرئيسية نحت متقن لإمرأة تشير إلى يونيها. تصميم مماثل كان يمكن رؤيته على مدخل جانبي لكنيسة في سرفاتوس Servatos، في إسبانيا، بينما كان رجل بقضيب يظهر بشكل مماثل على الجانب المقابل.

تصاميم رمزية لشخصية مماثلة ما تزال ترى في الهند، منقوشة بوضوح على المعابد، أو منحوتة في الحجارة وموضوعة على الجدران. وعلى باب إحدى مدن مقاطعات سيرينباتاو Sirinpatau القديمة يقف تمثال حجري بالحجم الحقيقي لسيتا Sita، أحد الآلهة الأنثوية للولادة، بينما يصور على كلا جانبيها ثلاثة تائبين

---

[37] (اليوني هو فرج المرأة "المظهر الخارجي")

عراة وهم على ركبهم، منشغلون في الفعل الموصوف في الطقوس القديمة لتبجيل هذه الإلهة.
في العديد من الحالات، خصوصا في معابد يوكاتان والبيرو القديمة، كان حجر الأساس على البوابة يزيّن بصورة أو نحت لليوني. وكذلك إستعمالنا الحديث لحذوة الحصان، كرمز للحظّ السعيد، يرجع أصله إلى هذه العادة في وضع تصميم لليوني فوق الباب كتعويذة؛ تم تبنّى حذوة الحصان بسبب شبهها بالشكل المفترض كثيراً لتمثيل اليوني.
الإهليليج المدبّب (الشكل البيضوي) كان أحد أكثر التصاميم التقليدية شيوعا في تمثيل اليوني، وفي التعديلات المختلفة لا يزال مصونا في أسلوب معمار كنائسنا، كما قد يُرى في شكل الأبواب والنوافذ والأقواس. هذا الإهليليج الرمزي كان كثيرا ما يدعى باسم "**باب الحياة**"، وتُرى أهميته اليونية الحقيقية عند كثير من التصاميم الدينية القديمة والحديثة أيضاً. تُمثَّل الأمهات العذارى والآلهة الأنثوية بشكل عام داخل إطار من هذا الشكل، وهناك ميداليات ما تزال موجودة يلبسها الحجاج من المسيحيون إلى ضريح عذراء أمادون Amadon، التي عليها نقش مصمم بهذا الشكل، كانت معروفة عند العامة بإسم "الأمّ والطفل في باب الحياة".
كما أشير في حالة القضيب، لذا فقد يظهر أنّ العديد من الأجسام الطبيعية قد أخترت كرموز لليوني yoni، بسبب بعض التشابه مع ذلك الرمز. من بين الرموز الأكثر شيوعا وألفة لهذا العضو الأنثوي هي صدفة القوقع، والتي ما تزال تلبس كتعويذة في أنحاء مختلفة من العالم، بينما كما كانت النساء المؤمنات من العصر القديم.
والسمك، أيضا، هو رمز ديني مشهور، مقدّس في الأصل إلى عشتار، وفينوس ومقدسات أنثوية أخرى ذات الطبيعة الجنسية. إختير السمك جزئيا بسبب خصبه، وجزئيا لأن فمّه كان يفترض أنه يشبه فتحة الرحم. كثيرا ما تتواجد التصاميم السمكية Piscatorial على المعابد القديمة والعملات المعدنية، وهي شائعة في الأنظمة الرمزية المعاصرة في الهند، فأحد تلك التصاميم الرئيسية تصور فشنو Vishnu وهو يخرج من فم سمكة عظيمة. إنّ قلّنسوة الأسقف هي شكل معدّل لرأس وفم سمكة؛ إسلوب لتصميم غطاء الرأس الديني هذا نتج عن ممارسة قديمة لكهنة نينوى، الذين كان تبجيلهم للسمك كرمز مقدّس قد قادهم لتبنّي شكل من اللباس يشبه، بقدر الإمكان، المظهر الخارجي لهذا المخلوق المقدّس.
كانت السمكة رمزاً شائعاً لإلهة الزواج الإسكندنافية، فريجا Friga، التي إشتق من إسمها اسم اليوم السادس في الإسبوع (Friday ="الجمعة")، لأنه في ذلك اليوم، يقدّس الإسكندنافيون هذه الإلهة بتقديم العطايا لرمزها المقدّس؛ عادة ما نزال نلاحظها بأكل السمك يوم الجمعة، أو يوم فريجا Friga.

في هذا الصدد، قد يكون من الشيق أن نلفت الانتباه إلى حقيقة، أن ثلاثة رموز قضيبية بارزة قد إحتفظنا بها مثل تصاميم دوارات الريح—السمك، الديك والسهم. إعتلت هذه الرموز في الأصل الأبراج وقمم المباني الدينية المدبّبة، لكن، ومنذ أن أصبحت أهميتها ملغاة، نفيت إلى الحضائر والإسطبلات.

إنّ شجرة التين رمز ملائم وإيحائي جدا في عبادة الجنس. فورقة التين الثلاثية ترمز للثالوث الذكوري (القضيب والخصيتان)، وكثيرا ما تستعمل ويشار إليها بذلك المفهوم، ولذلك تستعمل كغطاء رمزي للأعضاء الخاصّة للتماثيل العارية. إضافة إلى إيحائيتها الذكورية، فلهذه الشجرة أهمية أنثوية أيضا، من حقيقة أنّ فاكهتها يفترض أنها تحمل شبها قويا لشكل رحم العذراء، وأن الأكل منها أعتقد أنّه يحسّن الخصوبة.

لذلك من واضح، أنّ هذه الشجرة كانت إحدى الأشجار المقدسة والمهمة بشكل غير عادي، وفي السجلات الدينية المبكّرة، إستعملت كثيرا كإستعارة في الخطابات عند التعبير عن المشاعر والأفكار، والتي هي بلا معنى لأؤلئك الغير محيطين علما بالعديد من الخواص الرمزية التي نسبت لهذه الشجرة المهمة. "أن تجلس تحت كرمة وشجرة تين"؛ "لا تهتمّ بتينة (=لا يساوي ثمرة تين، ليس أمرا مهما، ليس رجلا)"، والعديد من التعابير الأخرى، كلّها ذات مغزى جنسي.

بالأضافة إلى التين، هناك عدد كبير من الأشجار والثمار الأخرى كانت ترمز للوظائف التناسلية؛ كالرمان، والتنّوب، والتفاح، والأَرز، والنخلة، وكروم العنب، والتوت؛ جميعها، مع عدّة أمثلة أخرى، لمّح لها بمفهوم رمزي في نشيد سليمان. يمثّل هذا النشيد حوار ثنائي هيامي بين سليمان وبنت الفرعون بمناسبة زواجهما، ويفترض أنه كان واحد من ألف أغنية حبّ وقصيدة مماثلة ألّفها الملك سليمان. هذا التأليف المحدد يعتبر نشيد الأناشيد، وهو بحق، قصيدة رائعة، حفظت بين أسفار الكتاب المقدس كرمز للحبّ بين المسيح والكنيسة.

هذا النشيد يحمل مثالا صاعقاً لم قيل بخصوص نقاوة الجنس، عندما يحدد هدف الجنس ومدى إرتباطه بالتبجيل الديني. مئات آلاف الرجال والنساء المتواضعين والمؤمنين قرأوا أناشيد سليمان بشكل موقّر، وأخفقوا في رؤية أي شيء في لغته الهيامية خلا المشاعر الصافية والمقدّسة؛ وعندما يقرأ هذه الأناشيد شخص لا يفهم أهميتها الدينية، لا يمكن إلا أن تثيره ككتابات جنسية وشهوانية خالصة.

عندما يتكلّم الحبيب مع من يحب، ويقول، "فَخْذَيْكِ مِثْلُ الْحَلِيِّ، .. سُرَّتُكِ كَأْسٌ مُدَوَّرَةٌ، .. بَطْنُكِ صُبْرَةُ حِنْطَةٍ مُسَيَّجَةٌ بِالسَّوْسَنِ"، لا يرى القس المسيحي فيه إلا وصف شعري لحب الكنيسة. وعندما تقول المرأة، بالمقابل، للرجل، "خَدَّاهُ كَخَمِيلَةِ الطِّيبِ، .. شَفَتَاهُ سُوْسَنٌ، .. بَطْنُهُ عَاجٌ أَبْيَضُ، .. سَاقَاهُ عَمُودَا رُخَامٍ، مُؤَسَّسَتَانِ

عَلَى قَاعِدَتَيْنِ مِنْ إِبْرِيزٍ"، و"بَيْنَ ثَدْيَيَّ يَبِيتُ" لا يرى القارئ التقي إلا تعبيرا رمزيا مقدّسا لحبّ الكنيسة للمخلص.

دعونا لا ندين بعجالة، ونحن لا ننسى هذا النشيد، أولئك الذين إنغمسوا سابقا في أشكال مماثلة أو أخرى لتلك التعابير الجنسية للدين، سواء أكانت ملموسة أو حسّية بالنسبة لنا، وذلك لجهلنا المعنى الديني المرتبط بها.

عبادة الجنس

الفصل الثامن

الأفعى والصليب.

إن عبادة الثعبان، بجانب تبجيل القضيب، هي أحدى أكثر أشكال الدين، بروزا، وفي نفس الوقت، هي الدين الأوسع إنتشاراً وإستمراراً، الذي عرفه العالم في أي وقت مضى. لا توجد بلاد من العالم القديم، في نصف الكرة الأرضية الغربي ولا الشرقي، لا يمكن تتبّعه فيها؛ ويتشر فيها كلّ نظام ديني لاهوتي معروف، إلا وأن

يترك براهين وفيرة لوجوده ومدى إنتشاره، على شكل أنصاب ومعابد ومتاريس، وكذلك في التصاميم والنقوش.

لا يوجد رمز آخر أستثمر بمثل هذا التنوع في المعاني والإستعمالات كما فعل مع الثعبان. إنه يُمثّل الحكمة، القوّة، الخلود، الخير، الشرّ، الحياة، وإعادة الإنتاج، وصفات أخرى مختلفة للجوهر الخالق. فقد دخل فى أساطير كلّ الأمم—مصر، سوريا، اليونان، الهند، الصين، إسكندنافيا، أمريكا؛ وباختصار، لا يوجد مكان على الكرة الأرضية لم يعرفه. كُرّس تقريبا لكلّ معبد، ومَثّل تقريبا كلّ إله، تُخيِّل في السماوات، خُتم على الأرض، وحكم في عوالم الحزن الأبدي.

ذلك أن الثعبان كان رمز قضيبي لا شكّ، لأن عبادته عاصرت عبادة القضيب، وشكّل جزءا من دين كلّ أمة تعبد الجنس؛ وفي الوقت الذي إرتبطت به العديد من المعاني المختلفة، كان جميعها يشير إلى الجوهر الخالق أو المنتج للطبيعة، وقابل للتحول بسهولة للعبادة الأساسية للولادة.

إستخدم الثعبان في حالات كثيرة كرمز للخالق، للعنصر المذكر للتوليد، بسبب شكله وقابلية حركته؛ قضيب حيّ، إذا جاز التعبير، تحركه روحه حركة ذاتية، ينتقل بدون أيدٍ أو أقدام أو أيّ من الأعضاء الخارجية التي توثر في حركة الكائنات الأخرى. وعلى أية حال، لم تكن أهميته ملحوظة كثيراً بين أغلب أمم الشرق، لأنّه كان يمثّل العاطفة أو الشعور، بدلا من الجسد أو الحقيقة المادية. بينما كان في المفهوم العامّ يُمثّل الخالق، وكانت وظيفته المحددة الرمز للروح المنعشة للولادة، والعامل المحفز في الإنتاج وخلود الحياة.

هذا العامل الفعّال النشيط، كان ‘الغريزة الجنسية، العاطفة المقدسة’. نظر إليها الفلاسفة القدماء كمصدر حيوي للولادة، والطاقة المؤثّرة في إنتاج الحياة وسكان العالم؛ ولذلك، كانت هذه العاطفة المقدسة بالنسبة إليهم، المتخلّلة لكل شيء، القوة الدافعة، المحركة: هي الروح الخالقة لله. وبالنتيجة، أصبح الثعبان جسما للتبجيل، وعامل روحي مقدس في لغز الحياة العظيم؛ وبالطبع، بحث فيه عابدوه عن الرمز الإيحائي. بالنتيجة أختير الثعبان، كتجسيد كامل وشامل للخواص المختلفة للخالق في قوّته الغير ملحوظة والكلية.

كانت الكوبرا دي كابيللو cobra de capello، أو الأفعى المقنّعة الهندية، بكلّ إحتمال، النوع المحدد من الزواحف التي تبنّت أولا كرمز للعاطفة المقدسة، بسبب خواصها الإيحائية العالية. لها قوّة نفخ نفسها لأعلى، تكبير ونصب رأسها، وعندما تثار حماستها، يكون حجمها، وشكلها، وموقعها، ونبضها المنتظم في هذه الحالة؛ وبالإضافة إلى قوّتها المشهورة في السحر، كانت هامّة جدا، وإستطاعت أن تجذب بسهولة ويسر أهواء وخرافات جنس عاطفي ومتدين من البشر.

كلّ التصاوير الأكثر قدما للثعبان في الرمزيات في مصر، وبابل، وبلاد فارس، واليونان، وبلدان أخرى، حملت شبهاً قوياً للكوبرا؛ لكن، وبعد تبني هذا المخلوق كرمز ديني، لم يحتج الأمر فترة طويلة لإظهار أهمية هذا النوع المحدد، ولم تلبث أن إمتدت إلى الثعابين عموما. ووفقا لذلك، نجد أن كلّ أمة عندها أنواع محددة خاصة من الأفاعى كرمز مقدّس للعاطفة المقدسة، أو لتنشيط الطاقة الطبيعة، في تفسيرات مختلفة للحكمة، والخلود، والحياة، وإعادة الإنتاج، إلخ.

تظهر أهمية الثعبان من حقيقة أنّ هذا الحيوان قد إستخدم في كلّ الطقوس والشعائر القضيبية للقدماء، فكان جسما للعبادة عند كلّ أمة على العمورة. وطبقا للكتاب المقدس، بُجلت الحية النحاسية التي صنعها موسى بأمر الرب بأعمق تبجيل بين بني إسرائيل، فكرّموها وعبدوها لمدة سبعمائة سنة، ثم حطّمها أخيرا الملك حزقيال،[38] بسبب الطقوس الوثنية التي إرتبطت بعبادتها.

كانت كلّ الإحتفالات، خصوصا تلك التي كانت تكريما لآلهة التناسل والإنجاب، تظهر بمظهر الإعجاب بالحية. ففي أسرار مصر واليونان وروما، حُمل الزاحف المقدّس في المواكب بجمع غفير من العذارى النبيلات، والعديد من الشعوب كان عندهم أفاع حيّة تلتف حول رؤوسهم، أو تحمل في أيديهم، بينما يصيحون بحماسة دينية. تقريبا، كان لكلّ مدينة قديمة من مدن الشرق، وكذلك في المكسيك وأجزاء أخرى من أمريكا، معبد لثعبانيها، التي تضم نماذج هائلة من هذا الزاحف المقدّس، حيث كانت تعبد وتخدم بشرف مقدس.

مع ذلك، وكقاعدة عامة، بُجّل الثعبان ومُجّد كممثل للسلطة العليا والحكمة والطيبة، ولم يستخدم بشكل نادر أيضا كرمز للشرّ. هذا ناتج بالطبيعة لإستعماله كرمز للرغبة الجنسية؛ لأنه، بينما كانت هذه الغريزة، تعتبر من ناحية، كعامل رئيسي في عمل الخالق، ومن ثم، فهو مصدر كلّ خير، فقد عرف، من أخرى، كسبب لكلّ شرّ أيضا. فمن خلالها جاء ذلك الذنب إلى العالم؛ لقد كانت العاطفة الغامرة، العمياء، هي من حرّضت البشرية على العصيان والشرّ؛ روح الرغبة الملتهبة؛ الغاوية، والمغرِّرة. ولذلك، أصبح الثعبان ممثلا للذنب، ومجسدا للشرّ؛ وهذا الشيطان، أو عدو الله هذا، أو ضد الخير، كان هو الطبيعة الجنسية، في سمته الحسّية والشهوانية.

ووفقا لذلك، ليس من الصّعب فهم الأهمية المجازية للثعبان عند الكلام عن الإغراء وسقوط آدم وحواء. فق كان ذنبهما هو علمهما بالمتع الجسدية. فلم يقاوموا رغباتهما الجنسية المتزايدة، بل سمحا لنفسيهما تناول الفاكهة المحرّمة.

إنّ رمزيّة الثعبان شاملة جدا، وتتقاطع مع تشكيلة عظيمة الإنتشار من الأشكال والمجموعات. وعلى أية حال، فمن النادر وجوده كرمز معزول، ماعدا وجوده في

[38] حوالي سنة 700 ق.م

التصميم المصري المشهور، الذي يصوّر ذيله في فمّه، كشعار للخلود والحياة الأخرى. وكقاعدة، يظهر الثعبان مرتبطاً برمزيْ الذكر أو الأنثى، وإحدى أقدم وأفضل التصاوير القضيبية المعروفة التي في شكل الثعبان، هو قضيب الحياة، أو كادوسيوس *caduceus* الإله ميركوري.

هذا الشكل يمثّل ثعبانان يلتفّان حول عصا أو قضيب قائم، ويتمثّلان الفالوس وهو يستلم الحياة والحيوية من الطاقة المقدسة. تتمثل أهميته الخاصّة بسبب موقع الأفعوانان، اللذان يتبنيان بالكوبرا عندما يلتقيان. يعتبره الهنود أنه أعظم طالع لجلب الحظ يمكن مشاهدتها هو هذا الإتحاد الأفعواني، وهو يقال أنّه، بينما ثعبانان متحدان بهذا الشكل، إذا رميت قطعة قماش عليهما تصبح ذات قوى فوق العادة. إن قطع القماش، التي سحرت بهذا الشكل، تحفظ بأعظم عناية وتبجيل، كتعويذات، لتفادي التأثير السيئ أو لضمان البركات الزوجية.

إنّ عصا الحياة، في تشكيلة عظيمة من الأشكال، شائعة على العملات المعدنية القديمة، والمجوهرات والمنحوتات. وفي كثير من التصاميم يصوّر الثعبان مرتبطا مع رمزي الذكر والأنثي، وله دائما أهميته العاطفية المقدسة، وطاقة التنشيط والإلهام الطبيعة.

تدين هذا القوة المقدسة والمحركة للطبيعة بقداستها الى حقيقة أنّها كانت الوسيلة الضرورية والمحرضة لإنجاز هدف الحياة الأعلى للرجل والمرأة—إتحاد الإثنان لإعادة إنتاج الحياة وتخليد الجنس البشري. لقد كان في إرضاء العاطفة المقدسة أن إختبر الإنسان أسمى سرور له، وأبصر السبب المباشر والفوري للمخلوق الجديد وخلود الحياة. لذلك، فقد إعتبر فعل التوليد، وإتحاد الجنسين، مقدّس ومبجّل بدرجة عالية. لقد كان يمثل الوسائل الرفيعة التي أمر بها الخالق لإنجاز هدفه اللانهائي؛ وكما سيوضح بشكل أكثر كمالا في فصل لاحق، فقد إعتبر 'الجنس' الفعل الأكثر قداسة، وكان هدفا لعبادة عالمية وطقوسا دينية متدينة.

كانت الكثير من الأشكال والتصاميم الواقعية تستخدم لتمثيل هذا الإتحاد المقدّس بين الجنسين، ولا يزال يمكن رؤيته على معابد وأنصاب مصر القديمة والهند. إنّ الرمز السائد والأكثر قداسة عند الهندوس هو إتحاد رمزي **اللنجام-في-اليوني** (*lingam-in-youni*)، تمثال (وثن) صنع من الخشب أو الحجارة، لتمثيل إتحاد رمز الذكر "لنجام" والأنثى "يوني".

إن رموزا بهذه الأهمية، بأنواع لانهائية من التصاميم والأحجام، كانت شائعة بين القدماء؛ لكن الأبرز بينها كان **الصليب** *cross*، الذي كان في شكله الأصلي والبدائي، مجرّد تبسيط للتصاميم المختلفة المستعملة لتمثيل إتحاد الجنسين. إن هذه التصاميم، في خطوطها العامّة وشكلها، تتركب كم جزء قائم، يتصل بزاوية قائمة مع قاعدة أفقية؛ تشبه بالكامل، إلى حد ما، شكل **T** معكوس (⊥)؛ وهذا الشكل

المبسّط، عندما يصنع من الحجر أو الخشب، وينصب في النهاية، لكي يعرض بوضوح أكثر، يكون بالنتيجة بشكل الصليب.

إستعمل الصليب منذ الأزل كرمز ديني. ولا توجد بقعة على الأرض سكنها البشر إلا ووجد بها، ولم يمر وقت في تاريخ العالم—حتى بالعودة إلا عصور ما قبل التاريخ،— إلا وظهر فيه هذا الرمز المقدّس إلى الوجود. فقد إعتبر عالميا رمزا للحياة، وللتجديد، أو للخلود، ورفع دائما بأعلى تبجيل وأعتبر أقدس الرموز.

يظهر بتشكيلة عظيمة من الأشكال؛ وجميعها، على أية حال، قابلة للإختصار بسهولة إلى الشكل الأساسي البسيط. إنّ الصليب رباعي الأذرع متساوية الطول، والمجتمعة بزاوية قائمة، والذي يدعى عموما بالصليب الأغريقي (+)، موجود على الألواح الطينية الآشورية، وعلى الأنصاب والتماثيل المصرية والفارسية، وعلى الجرار والآواني والمزهريات الأتروسكانية Etruscan؛ بينما الصليب اللاتيني، الصليب المستعمل الآن كرمز مسيحي (✝)، يمكن رؤيته على العملات المعدنية القديمة والأنصاب والفخاريات، والأوثان الحجرية الموجودة في خرائب المعابد والمساكن قد وجدت منذ مئات وحتى آلاف السنين قبل زمن المسيح.

الشكل المعدّل من هذا الصليب هو *crux ansata*، أو صليب يُحمل بحلقة، وهو صليب مشهور بسبب ذلك الجزء الذي يوجد فوق الذراع الأفقية بشكل حلقة بيضوية، وتعمل كمقبض لحمل الوثن. وجد هذا الصليب مصوّراً في العديد من المشاهد الدينية على معابد مصر القديمة، ويظهر غالبا في أيدي إيزيس وأوزيريس والآلهة الأخرى، بينما لم توجد أشكال منه، وبشكل نادر، على صدور المومياءات. أما المنحوتات الآشورية والبابلية، فتعرض هذا الشكل من أشكال الصليب كثيرا، ويُرى منقوشاً بوضوح على بعض العملات المعدنية الموجودة في معبد سيرابيس Serapis.

تحمل العملات المعدنية الفينيقية المبكرة تصميماً لصليب على أحد وجهيها، ورسما لحمل على الوجه الآخر، بينما تقش على بعض تلك العملات سلسلة نصف دائرية من الخرز ربطت بالصليب؛ تماثل في كلّ جانب السبحة الحديثة. سبح نفس النوع توجد أيضا بين بوذيي اليابان وكهنة لاما التبت.

قبل الرومان أو أسلافهم بفترة طويلة، كانت شعوب الأتروسكان Etruscans، الذين وصلوا الى مرحلة متطورة عالية من الحضارة قبل قرون من تأسيس روما، هناك، في السهول الشمالية لإيطاليا عاش شعب كان الصليب بينهم رمزاً دينياً. لا يخبرنا التاريخ شيء عن هؤلاء الناس، ولا نعرف عنهم شيءً، إلا أنّهم عاشوا حياتهم دون معرفة الفنّ والحضارة؛ ذلك أنّهم عاشوا على منصات بنيت فوق البحيرات، وأنّهم رشموا أماكن إستراحة موتاهم بصورة الصليب.

في كهف إليفانتا Elephanta، قرب بومباي، هناك نحت يسجل هلاك الأطفال الذكور عند ولادة كريشنا، المخلص الهندي، الذي عاش منذ أكثر من ألف سنة قبل ميلاد المسيح، وفوق رأس منفذ الإعدام، المحاط بالأمهات المتضرّعات الثكلى، نقش صليب.

عندما جاء الإسبان إلى أمريكا، لم يندهشوا لأنهم وجدوا أن السكان الأصليين يعبدون مخلصا مصلوبا وأم عذراء فحسب، بل أن الصليب كان أكثر رمز مقدس عندهم، وقصة الخلاص والحياة الآخرة أيضا. أدّت هذه السمات الغير قابلة للتفسير في دينهم إلى إختراع أسطورة من قبل المسيحيين، وهي أن القديس توماس جاء بشكل عجائبي إلى أمريكا قبلهم بقرون، وأنه نشر مذهب الكنيسة بين المكسيكيين. لكن هذه الأسطورة تفشل في تبرير وجود الصليب وعدة سمات أخرى للمسيحية وشيوعها بين أجناس ما قبل التاريخ في القارة الغربية، قبل العصر المسيحي، كما تظهر بقاياهم.

كان الصليب موقّرا بين سكان نيكاراكوا، ويوكاتان، وغواتيمالا، والبرغواي، والبرازيل، والبيرو. وفي البلاد الأخيرة عبد شعب الإنكا صليبا مصنوع من قطعة واحدة من حجر اليشب، بينما وجدت صلبان من الرخام الأبيض بين خرائب المساكن القديمة في الأمريكتين الجنوبية والوسطى.

في وسط غابات تشيباس Chiapas، في المكسيك، هناك مدينة خربة، هجرت لفترة طويلة، كانت عامرة في وقت الغزو الإسباني. طبقا للتقليد، فإنها تأسّست منذ تسعمائة سنة قبل الميلاد. في هذه المدينة القديمة، بالينك Palenque، يوجد منزل العبادة الدينية، يحتوي عدّة مذابح، وخلف أحدهم إكتشفت كتلة حجرية، نحت على صفحته جسمان بشريّان، يقف كل واحد منهما على أحد جانبي صليب، ويمد أحد الجمسين ذراعيه ويقدّم رضيعا.

كان الشكل الأكثر الأولي والبدائي للصليب واحدا في شكل الحرف T، يدعى عموما باسم الصليب التائي *tau cross*. هذا كان الرمز الإسكندنافي القديم لإله ثور Thor، ويوجد بين أمم العالم الموغلة في القدم. لقد كانت العلامة التي وضعها الإسرائيليين على أطر أبوابهم بدمّ الحمل، بمناسبة عيد الفصح، وفي سفر حزقيال (9: 6) نقرأ أنّ هذه الإشارة المقدّسة والسحريّة نفسها قد أمر الرب بوضعها على جباه رجال أورشليم الذين كانوا سينقذوا من دمار المدينة: "اَلشَّيْخَ وَالشَّابَّ وَالْعَذْرَاءَ وَالطِّفْلَ وَالنِّسَاءَ، اقْتُلُوا لِلْهَلاَكِ. وَلاَ تَقْرُبُوا مِنْ إِنْسَانٍ عَلَيْهِ السِّمَةُ".

كانت الصلبان بهذا الشكل مستعملة بشكل عام في الطقوس الدينية للقدماء، وكانت مألوفة بين بعض الأجناس الشرقية عند النساء للتضحية ببكارتهن، بتمزيق غشاء البكارة بصليب حجري صغير من هذا النوع.

أوثان من هذا الصليب، التي أشير إليها في الكتاب المدقس بـ صُوَرَ ذُكُورٍ، ظهرت في العبادة الوثنية عند الإسرائيليين؛ وإستعمالهم لتلك التي صنعوها، نعرفه من الآية 17 من الإصحاح 16 لسفر حزقيال.

إستخدم الصليب التائي لثلاثة أو أربعة قرون بعد السيد المسيح، تقريبا بشكل خاص من قبل أتباع الدين الجديد، ونقوش له، بالإضافة إلى الصليب المُحلّق *crux ansata*، الذي قد يرى على قبور وأنصاب المسيحيين الأولى. في باديء الأمر، على أية حال، لم يسمح آباء الكنيسة بإستعمال الصليب في أيّ شكل له، لأنه كان رمز وثني، وإعتبر تقديمه فى الإحتفالات المسيحية تدنيسا كبيرا، ومحرّم بشكل صارم.

مع أنّه يعتقد بشكل شعبي أنّ رمز كنيستنا الحالي المألوف يمثّل شكل الصليب الذي صلب عليه المسيح، لا يوجد هناك بالتأكيد أي سلطان لهذا الإعتقاد، حيث أنّ لا وجود لأي سجل أصيل يصف شكل الصليب الذي أعدم عليه يسوع. فآلات الإعدام هذه كانت بأشكال مختلفة؛ وأبسط أشكالها أن يكون عمودا قائما، وكان يخوزق عليها الشرير أحيانا، وأحيانا يربط بالحبال أو المسامير. في أشكال أخرى، كثيرا ما كانت القطعة المستعرضة منفصلة عن القائمة، وهذا الجزء كان الوحيد الذي يحمله الضحيّة إلى مكان الإعدام. لذا، لم يلزم المسيح بحمل كامل الصليب، كما يفترض عموما، ويمثّل في الصور، بل ببساطة القطعة-المتصالبة، التي ربطت إلى العمود القائم بعد أن وصل الى موضع الجمجمة.

من حقيقة أنّ المسحيّين الأوائل إستعملوا الصليب التائي **T** كرمز للصلب، فمن المحتمل أن ذلك كان شكل الصليب الذي قابل المسيح موته عليه، وهذا هو الرأي الذي يقبل به أكثر العلماء والمحقّقين.

خلال كلّ عصور بني البشر، كان الصليب أغلى وأقدس الشعارات، وعند العباد المؤمنين اليوم هو نفس الرمز المجيد للعزاء والبعث كما كان عند الرجال أو النساء قبل خمسة آلاف سنة. يمثّل في المقام الأول الإتحاد المقدس بين الجنسين، ومثّل دوما التجديد والحياة الأبدية.

الفصل التاسع

الفعل المقدّس.

يبين التوظيف العالمي للصليب في كلّ العصور، كرمز للحياة والخلود، بشكل حاسم جدا التوقير الفطري والشامل للبشرية للفعل المقدس للإنجاب،—إتحاد الجنسين؛— ليس فقط بسبب الإنتشاء العالى الذي يُلهمه "الفعل الجنسي" (الذي يعتبر، في العديد من الكتابات الدينية والفلسفية القديمة، إتحاد مؤقت مع الله، وتشرّب للروح المقدسة)، بل بسبب نتيجته الرائعة والرفيعة. فهو كان قمّة النعمة

الإنسانية، ومضة من الطبيعة المقدسة، عمل الرب للتخليد. فكان أول من صحّى في الإنسان إدراكه للروح، وإيمانه بخلود الحياة.

كان الرجل والمرأة بالنسبة لفلاسفة العصر القديم في شخصيتهما مخلوقات غير كاملة؛ فلم كانوا إلا أجزاء مكوّنة لمخلوق واحد. فقد كان عندهما في نفسيهما القوة الكامنة لإعادة الإنتاج والخلود، لكنهما بنفسيهما كانا عاقرين وعاجزين. فبإتحادهما فقط، وفي نشاطهما المتبادل والتعاوني، يصبحا واحد،ـــروح مثالية. وعندها فقط يكونا قادرين على تحقيق الوصية المقدّسة التي خلقا سويا لأجلها.

لذا، فمن غير المفاجئ على الإطلاق، أنّ هذا الفعل المدهش والقدير كان يجب أن يكون هدف عبادة مقدسة؛ وإلى يومنا هذا يجري إتحاد الجنسين بمراسيم دينية مهيبة، في إعتراف مستمر لقدسيته. فبحكم للقانون، يعتبر الزواج ببساطة عقدا مدنيا، إتفاقية مجرّدة للعيش سوية، وقد يجري توقيعه أمام أيّ موظف كفوء حسب أصول القانون؛ لكن الأغلبية الواسعة منّا يفضّلون أن يجري هذا العقد في مناسبة لإحتفال ديني. في الحقيقة، يعتقد الكثير بأنّ الزواج لا يكون صحيحا ما لم يؤدّى على يد ممثل للرب، ويتم بالبركات والطقوس الرسمية. تعتبر الربطة الزواجية رابطة مقدسة،ـــ"إِذاً لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللهُ لاَ يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ"،[39]

ومع ذلك، ما هدف مراسم الزواج إلا تقديس للإتحاد الجنسي؟ لا يزال التوقير المقدم لهذا الإتحاد متأصّلا في البشرية، وبسبب قدسيته، لا يمكن أن يتم حتى يقدّس ويجاز بشكل صحيح بهذه المراسم الدينية. وكان الإنخراط في فعل التناسل بغياب مثل هذه الطقوس التكريسية، يعتبر خطئا أو جريمة، حتى ولو كان قبل أربعة وخمسة آلاف سنة مضت.

أدّى هذا الإحترام الموقّر للفعل المقدس للخلق، في كلّ الأديان القديمة، إلى تبني الشعائر والممارسات المختلفة لتقديس الإتحاد الجنسي، ليس فقط في شكل الزواج، بل بالدعارة، التي، وتحت بعض الظروف، إعتبرت صحيحة ومقدّسة. فكلّ معبد قديم كان توقف له عدد من النساء المكرّسات، اللآئي كانت وظيفتهن تقديم أنفسهن لمعانقة أيّ رجل قد يأت لهن في المعبد، بدفع مبلغ محدّد؛ ويستعمل المال المستلم هكذا للأغراض الدينية.

بالنسبة لعقول القدماء ليس هناك عمل أكثر ملائمة ولا أي وسيلة مقدّسة، يمكن أن تبتكر لزيادة المال لصيانة المعبد، من الإنغماس المبجّل في الفعل المقدّس. فقد كان الجنس أرفع وأكثر الوظائف الإنسانية قداسةـــ إتمام إرادة الله،ـــوبالتالي، كان معبد الله المكان الأكثر ملائمة لأدائه.

---

[39] إنجيل متى 19: 6

إحدى أوّل التلميحات لنساء المعبد المكرّسات هؤلاء يوجد في سفر التكوين،[40] حيث يخبرنا عن ثامار التي خدعت عمّها، يهوذا، بلفّ نفسها بالبرقع حسب طريقة نساء المعبد، وجلوسها أمام باب عينايم، حيث رآها يهوذا ودخل بها. لبست النساء من هذا الصنف ثوبا خاصّا، الصفة المميزة الرئيسية له كان حجاب طويل، وكن يتصرّفن بهدوء، لا يتصيدن الزبائن، بل ينتظرن منهم المبادرة الأولى. في هذا المظهر نجحت ثامار في إغواء يهوذا، الذي إعتقد أنّها كانت خادمة للمعبد، ولذلك، فهي إحدى من يسمح لهن بالمشاركة. كانت العاهرة العادية منبوذة عند العبرانيين، وكانت مفضوحة بثوبها الدعيّ وتصرّفها الوقح، ولم يكن من العادي للنساء بهذه الشخصية أن تهرول إلى الرجال وتقبّلهم علنا.

كانت الدعارة المكرّسة شائعة بين كلّ أمم العالم الأولى، وإعتبرت في كل مكان أكثر المباهج قداسة. وكانت بعض أماكن العبادة القديمة قد كرّست كليّا لهذا الهدف المقدّس، كما يتبين ذلك من حقيقة أنّ المعبد الرئيسي لمدينة بابل الذي كان يدعى بيت-شاغاطو Bit-Shaggathu، وتعني بشكل حرفي، معبد الجماع.

كان عدد النساء المرفقات ببعض هذه الأماكن كبيرا جدا؛ وكان في معبد فينوس في كورنيث Corinth ليس أقل من ألف مومس مقدّسات إرتبطن به، وهناك عدد مماثل منهن كرسن لمعبد نفس الإلهة في إريكس Eryx. فقد هذه الممارسة، في أوقات تالية بين اليونانيين والرومان، معظم سماتها الدينية، وإنحطت إلى إباحية مطلقة، ويخبرنا يوفينال Juvenal أنّ كلّ معبد في روما كان عمليا بيتا مرخصا للدعارة.

لا تزال هذه الممارسة، في نقاوتها الدينية، رائجة في أنحاء عدة من الهند، حيث أن كلّ معبد مهم يعود لعُبّاد ما يعرف بالمعتقد الساكتي Sacteyan، يرتبط به عدد كبير من بنات الرقص، أو "نساء المعبود"، اللآئي يعتبرن مكرسات مقدّسات في هذا المعتقد. هؤلاء البنات يختارهن الكهنة، عندما يكن صغيرات، بسبب جمالهن وصحتهن ونشاطهن، وهو يعتبر شرف نادر للآباء أن يكون عندهم بنت أختيرت لهذه المهنة المقدّسة؛ وحتى الموظفين كبار المستوي والوجهاء ينظرون يثمنونها عاليا كإمتياز بفخر.

تعتبر هؤلاء البنات المكرّسات عند بعض الطوائف الهندية مقدّسات جدا، وهن تجسيد للإلهة بهاغافاتي Bhagavatee، وأهداف للعبادة والتبجيل. يؤدّي العديد من الأشخاص يوميا عبادة هذه البنات. ويتم عمل هذا بوضع البنت، وهي بحالة

---

[40] سفر التكوين إصحاح 38 [فَخَلَعَتْ (ثامار) عَنْهَا ثِيَابَ تَرَمُّلِهَا، وَتَغَطَّتْ بِبُرْقُعٍ وَتَلَفَّفَتْ، وَجَلَسَتْ فِي مَدْخَلِ عَيْنَايِمَ الَّتِي عَلَى طَرِيقِ تِمْنَةَ، .. فَنَظَرَهَا يَهُوذَا وَحَسِبَهَا زَانِيَةً، لأَنَّهَا كَانَتْ قَدْ غَطَّتْ وَجْهَهَا. فَمَالَ إِلَيْهَا عَلَى الطَّرِيقِ وَقَالَ: هَاتِي أَدْخُلْ عَلَيْكِ. .. فَقَالَتْ: مَاذَا تُعْطِينِي لِكَيْ تَدْخُلَ عَلَيَّ؟ فَقَالَ: إِنِّي أُرْسِلُ جَدْيَ مِعْزًى مِنَ الْغَنَمِ] (38: 16-18). كانت ثامار زوجة عير بكر يهوذا، فلما توفي بعلها أعطيت زوجة لأخيه الذي مات عاجلا لشره، فوعدها يهوذا لإبنه الأصغر حسب العادة. ولما طال بها الإنتظار رتبت لملاقات والد زوجها، يهوذا، في شكل بغي. ولما اتهمت بالزنا بررت نفسها مظهرة خطيئة يهوذا، فلم تقتل.

عارية تماما، على مقعد محاط الزهور، والألوان، الماء المعطر والثمار، وتوجه لها الصلاوات وتعابير التبجيل. ومن ثمّ تقدّم لها أغلى الأقمشة والحلي والنبيذ، وفي ختام المراسم، التي هي طويلة ومسهبة، يقدم المتعبد بخورا، ويطرح نفسه أمام المعبودة الحيّة.

بعد وصول هؤلاء البنات لسن النضج (البلوغ) الجنسي، تدخلن فى طقوس أسرار وواجبات مهنتهن، وذلك بإتمام زواجهن إلى الإله. يثمن جمالهن الطبيعي العظيم عاليا بكلّ إغواءات الأقمشة، والجواهر، والفنون المغرية والسحر الأنثوي بمجمله. ويعتبر الرقص أكثر فنونهن تهذيباً؛ ليس، على أية حال، نمط ذلك الرقص الذي نحن متعوّدون عليه، بل هو رقص يشمل تمثيلية صامتة تؤدى بأكثر الحركات رشاقة وفتنة وإثارة، وبإيماءات وإلتواءات وتموجات رائعة وحركات معبّرة بالأذرع والأرجل وكامل الجسم؛ أداء ماهر وحساس وشاعري في آن، ويشكّل التوظيف الظاهري الرئيسي لبنات الرقص هؤلاء.

إن وظيفتهن الحقيقية، على أية حال، هي ضمان دخل للمعيشة وإغناء المعبد، بتقديم أنفسهن إلى كلّ من يشتهيهن ويرغب دفع ثمن إمتلاكهن. ولأنهن جميلات، وبارعات في كلّ المغريات وفنون الفتنة والعاطفة، ورفيقات آمنات، بسبب حالتهن المثالية الصحية، وبما أنهن يعتبرن شريفات ومقدّسات من ناحيتهن، بالإضافة إلى ناحية رعاتهن، بهذا تزداد خزينة المعبد، وليس من الضّروري أن نعجب أنه كثير ما رُغبن ودفع ثمن جزيل لهن لأجل خدماتهن.

عوملت هؤلاء النساء المكرّسات بأعظم توقير وإحترام؛ بينما أعتبرت المرأة الهندية التي تمارس البغاء بنفسها للمكسب الخاصّ، محتقرة وتحمل إسماً معيباً؛ وهو توضيح أكثر قداسة يرتبط بالفعل المقدس، والتدنيس والتلوث الذي ينتج بأدائه في غياب الرعاية الدينية.

لقد عرف بين العديد من القدماء أن الإنغماس الجنسي كان الهدف الوحيد والحقيقي في الحياة، وأنّه كان واجب ديني على كلّ رجل وإمرأة تجاه الله، الخالق. لم يعتنق هذا المذهب بشكل نادر إلى حدوده؛ ولم يكن شيئا غريبا بالنسبة لشعوب العصر القديم، لأننا نجد أنه في العصور الوسطى هناك بعض الطوائف المسيحية قد آمنت أنّ النعيم الحقيقي على الأرض، يتضمّن الإستمتاع الكامل والغير مقنّن، بالمتع التناسلية، التي أمر بها الرب كوسائل مقدسة لإنجاز هدفه المجيد، وجعل البشرية أكثر قربا للمشاركة معه ومع النعيم الأبدي الذي ينتظرهم فيما بعد. بلغت هذه الفكرة في بعض الحالات مدى ما، لم تكن فيه الشهوانية الجامحة والجريمة مسموحة بها فحسب، بل أوصى بها في الحقيقة، إذا دعت الضرورة لنيل المآرب النهائية.

طبقا لأحد هذه الطوائف، المعروفة باسم الغنوصيين Gnostics، كان أعظم الذنوب (في الحقيقة، الذنب الوحيد) يتضمّن معارضة الشهوات والعواطف. هذه كانت هدايا الله؛ أعطيت للإنسان لغرض مقدس، وكلّ ميل ألهم بواسطة هذه الهدايا يجب أن ينجز كواجب ديني؛ عقيدة وجدت العديد من الأتباع المتحمّسين، وكانت ممارساتها تتوافق بالكامل مع إعتقاداتهم. وكانت عندهم عادة تبنّوها ومارسوها دينيا، تتطلّب من المضيّف تقديم زوجته إلى الغريب أو الصديق الذي يجري تسليته في البيت. لقد كان الكرم الأصيل بالنسبة إليهم يتضمّن وضع المضيّف كلّ ما يملك في تصرف ضيفه، وفي نفس الوقت يقتنص الضيف فرصة الإنغماس في الطقس الذي وصفته الطائفة.

كانت العادة في هذه الحالة بارزة، بسبب تبنيها وممارستها من قبل الإنسان المتحضّر؛ لكنّها كانت دائما ميزّة شائعة للظروف الإجتماعية البدائية، وفي الوقت الحاضر موجودة بين العديد من الشعوب الغير متحضّرة في العالم. فبين قبائل ساحل كولومبيا البريطانية، يعد إهداء الزوجة للضيف شرفا عظيما. كان الإنسان الوحشي يقدم للزائر زوجته كما نعرض نحن مقعدا على الطاولة. لم تكن الزوجة هي التي تعرض دائما، على أية حال؛ بل هي الإبنة أحيانا، أو الأخت، أو الخادمة. هذا، ويحذّر شعب جزيرة مدغشقر الغرباء للتصرّف بحشمة مع زوجاتهم، بينما هم بسهولة وعن قصد يعرضون بناتهم. سيعطي التونغي Tungas بنته لفترة من الزمن إلى أيّ صديق أو مسافر يتودد إليه؛ وإذا لم يكن عنده بنت، سيقدم خادمته، لكن ليس زوجته؛ بينما نجد في قبائل أخري أن الزوجات يستسلمن عموما ويتبادلن كرمز للصداقة،ــــعادات ستذكّر القارئ ولا شكّ بممارسة مماثلة في إسبرطة Sparta القديمة تتمثل في إقتراض وإقراض الزوجات.

كانت عبادة فعل التكاثر شائعة عند كلّ أمم العالم، وشكّلت ميزّة مهمة للعديد من إحتفالاتهم الدينية تكريما لآلهة الإنجاب. لم يتضمّن الولاء للخالق تقديم القرابين والهدايا وأغاني المديح فحسب، بل عمل الشعائر الرسمية للوظيفة المقدّسة للخلق نفسه؛ لأنه، طبقا لتعليمات كلّ الأديان، لا يمكن لفعل أن يكون مقدّسا أكثرا من ذلك المعمول به تقليدا للإله. ولكي تكون كالإله، ولتعمل كما عمل، ولتسير على خطاه، هي نصائح ذهبية وأساسية لكلّ معتقد ديني. لذا، لم يكن إلا طبيعيا، أن كان الفعل المقدس للخلق يستوجب أن يؤدّى بإيمان كشعيرة دينية، في مسعى ديني لتقيلّد الإله القدير في عمله المجيد للخلق وإعادة الإنتاج، وأنّ ذلك كان يجب أن يكون الهدف لعبادة خاصّة.

مثال نموذجي لهذا الإسلوب الذي تؤدي فيه هذه الشعيرة القديم كثيرا، توجد في الوقت الحاضر بين أتباع كاوتشيلو Kauchiluas الهندية. القيود الإجتماعية تزال كلية في الوقت الحاضر، تكريما للخالق ووظائفه المقدسة. النساءــــالجواري

والرئيسات ـــ تودع صدرياتهن في صندوق، كلّ كسوة وكلّ إمرأة ترقّم من قبل كاهن. وعند إنتهاء طقوس الأغاني والصلاة، يأخذ كلّ متعبد ذكر صدرية من الصندوق، والمرأة التي عندها الرقم الذي يقابل ذلك الذي على الكسوة، حتى ولو كانت المرأة هي أخت أو إبنت الرجل الذي سحب كسوتها، تصبح شريكته لإنجاز هدف ما كانت عبادتهم ومديحهم أثناء المراسم السابقة.

هذه الطقوس والتجاوزات البرّية الوحشية التي هي عرضية أحيانا، ينشغل بها أكثر المؤمنون إخلاصا وصفاء من الرجال والنساء؛ وأغلبية اللذين هم خارج هذه المراسم (اللذين يعتبرون مراقبين مخلصين وجدّيين لإيمانهم)، هم ببساطة وعفة أيّ زميل لهم متنور من العالم الغربي.

كان الجماع الجنسي العشوائي من هذا النوع يزاول في المعابد، كميزة مألوفة لمهرجانات الربيع عند اليونانيين والرومان، الذي جرى تكريما لآلهة الإنجاب، وقُبل وأوصى به كأحد الوسائل الصحيحة والملائمة لتمجيد الآلهة؛ بينما يقودنا القديس أوغسطين Augustine لإستنتاج أن الإحتفال بالقربان المقدس عند أوائل المسحيّين لم يكن يختم بشكل نادر بطريقة مماثلة.

كانت مهرجانات من نوع مماثل يحتفل بها في كافة أنحاء مصر، تكريما لإيزيس وأوزيريس، آلهة الولادة. وكان الإحتفال بالتيس ميندز Mendes طقسا بارزا جدا، لأنه كان ذلك التيس المقدّس الذي إستخدم في الطقوس. حيث كان هذا شخصية دينية جدا، بما في ذلك، تلك الحالة العالية من الحماس والإثارة، وكانت العديد من النساء في ذروتها تعرضن أنفسهن إلى التيس، كممثل مقدس للإله.

أخبرنا هيرودتس المؤرخ أن التيس (ذكر الماعز) قد قبل هذا الجماع الغير طبيعي، وأن الإتحاد قد جرى علنا في إجتماع، إعتبره الجميع الأداء الأكثر قداسة وتبجيلا؛ والنساء اللواتي قدّمن أنفسهن هكذا أعتبرن، فيما بعد، موقرات بشكل خاص كمستلمات للنعمة المقدسة. لم تكن هذه الميزّة الخاصة للإحتفال، على أية حال، حكرا للنساء، كما يتبين لنا من إشارات متكرّرة في السجلات القديمة، ومن النحت المصري الذي يمثّل إتحاد الرجال والعنزات الأنثى.

كما ذكر سابقاً، أدّيت مثل هذه الشعائر خلال رغبة مؤمنة ودينية حقة لتشريف الإله والفوز بنعمته، وذلك بتقليد الفعل المقدس الذي تتجدد به الحياة وتخلّد. كانت هذه الوظيفة المنتجة القدسية عند بعض الشعوب القديمة، تمثّل بالإتحاد العلني بين الرجل والمرأة؛ ممارسة كانت تحضر بمراسم دينية متقنة، وتشكّل الميزّة الأكثر قداسة وأكثر سمواً بين عباداتهم.

ما يزال هذا الطقس الخاص ممارساً عند بعض الطوائف العابدة للقضيب في الهند، ويماثل شعائر سكان بعض جزر المحيط الهادي الأصليين. كتب ملاح، عن إحدى مهرجاناتهم الدينية، يقول: "شابّ بحجم رفيع وأبعاد مثالية يؤدّي فعل الخلق

مع آنسة صغيرة بعمر أحد عشر أو إثنا عشر سنة أمام الحشد المجتمع، بينهم كان قادتهم البارزين من كلا الجنسين، دون أيّ تفكير فيما يشاهدون، عدا أنه واجب ديني صحيح".

يمكن إعطاء أوصاف للعديد من الطقوس الأخرى المحتفى بها تكريما للوظيفة المقدسة للولادة، لكن تلك أستشهد بها كافية لتبيان كم هي شائعة ومثابرة خلال كلّ العصور التي كان توقير الإنسان لتخليد فعل التناسل، وأنه في كلّ عصر وفي كلّ بلاد سعت البشرية لتشريف وتمجيد خالق الحياة بالمراسم الدينية الملائمة.

|

الفصل العاشر

الولادة ثانية.

في كلّ الميثولوجيات والمذاهب الدينية، يعتقد بتجديد الحياة كميزة بارزة وأساسية. مكستية بتشكيلة لا تحصى من الأساطير والمعتقدات والمذاهب، كانت هذه المرحلة المجيدة للطبيعة وللحياة ومنذ الأزل، هدف عبادة الإنسان السعيدة، كنموذج للخلود وفداء البشرية. خلال كلّ العصور، إحتفلت أمم العالم بتجديد الحياة بمهرجانات دينية مسرورة؛ مهرجانات لا زلنا، بتعديلات مختلفة، نحتفظ بها إلى يومنا هذا، وتشكّل السمة الرئيسية والأكثر إلهاما للعبادة الدينية الحديثة.

لم يمر وقت في تاريخ الجنس البشري لدينا منه أيّ سجل، لم تحتفل البشرية فيه بإعادة المشاهد الحية الربيعية للطبيعة؛ إحياء أو بعث الحياة من جديد. بعد عهد مجيد في السماوات، إبتهجت خلاله الأرض بفرحة وجمال، تدخل الشمس العوالم الشتوية للسماء الجنوبية، تاركة العالم باردا وكئيبا. لكن، وبعد وقت قصير من ذلك الغياب الكئيب، ندبت خلاله وبكت كلّ الطبيعة، تظهر ثانية بفخامة نورها وقوّتها، وتعيد للأرض البهجة والقوّة اللتان بقيتا نائمتين بالبرد والموت تحت حضر الشتاء. يسرع العالم، الأمّ الأرض، بقوّة تنشيط الشمس، الأبّ. الحياة ولدت ثانية. تصحو الأرض مرة أخرى بالحيوية والجمال المجدّدتان. وما العالم، وكلّ الطبيعة إلا رمز منتصر لتجديد الحياة.

كانت هذه الأحداث الموسميّة بالنسبة للإنسان البدائي بمعنى أكثر حيوية. فقد عنت له أكثر من مجرّد ظواهر طبيعية. لقد كانت تجليات عليا للحياة العالمية في مراحلها المدهشة من ولادة، وموت، وبعث للحياة. الربيع، والصيف، والخريف والشتاء، والشهور، والنهار والليل، والأرض، والشمس وعدد كبير من حوادث الظواهر ومعالم التقلبات السنوية للأرض: أصبحت كيانات حيّة، تجسيد للكائنات والآلهة، التي كانت علاقتها ببعضها الآخر، أما الأدوار التي لعبوها في المسرحية العظيمة للطبيعة، فقد أضحت سبّبا لتلك الخرافات والأساطير. تلك، وكما ذكر في السّابق، شكّلت قاعدة لكلّ نظام ميثولوجي وأسطورة وكلّ مذهب لاهوتي.

إنّ كل الأساطير المشهورة لليونانيين والرومان والإسكندنافيين، وحكايات روضة أطفالنا المألوفة—"ذات الرداء الأحمر الصغيرة"، "سيندريلا"، "الجمال النائم"، وغيرها الكثير،—سوية مع أساطير علم اللاّهوت، جميعها يمكن تتبعها إلى الحكايات البسيطة التي إخترعها الإنسان الأول كحلّ له توضيحات لمظاهر الطبيعة.

الظلام والضوء، الشتاء والصيف؛ فجر الصباح، وحلول الربيع؛ إنتصار النهار على الليل، تغلب الحياة على الموت—هذه هي الأنماط الأساسية لكلّ قصص ومسرحيات الطبيعة، والآلهة، وأنصاف الآلهة، والوحوش، والأرواح، والملائكة، والحيوانات، والرجال، والنساء والأطفال، كلّها تخدم أدوارها الإيحائية في إجازية أو إستعارة لقوى وظواهر الحياة.

شُخِّصت الشمس، أو الحياة، في زيّها الصيفي، في حالات كثيرة، بشكل شاب، الذي كان مثل، بالدور Baldur، إله الصيف الإسكندنافي، يُذبح خلال خيانة الشرّ الذي يمثّله الصقيع أو شهر ديسمبر المخيف، ويُحمل إلى العالم السفلي، وهناك يبقى أسيرا لإله الشتاء، لكنه في النهاية يعودة إلى الأرض ويفرحها مرة أخرى بحضوره.

مرة أخرى، كما في الأسطورة المرتبطة بالأسرار الإليوسينية Eleusinian لليونانيين، الحياة هي عذراء—برسيفوني Persephone،— التي حملها بلوتو Pluto إلى عالم الظلال، لكن من خلال تضرّعات أمّها، ديميتر Demeter، إلهة الأرض، سمح لها بالعودة إلى العالم كلّ صيف.

بالأضافة إلى هذه الأساطير البسيطة والأكثر وضوحا، سبّبت الظواهر الشمسية العظيمة خلق حكايات رمزية بشخصية أكثر إتقانا ولاهوتية. كانت الشمس الخالق الإله نفسه، على شكل مخلص مقدس، يأتي لتخليص العالم من ظلامه. كان نجم الصباح بشارته السماوية، بينما كان الليل مستبدّا قاسيا، الذي خاف وصوله الذي يحكم الأرض بالنور، وأراد تحطيمه بإطفاء كلّ الأنوار، وكلّ النجوم، من السماء. كانت الشهور الإثنا عشر، أو الإثنا عشر رمزا لدائرة البروج، مرافقة للمخلص في رحلة حياته، التي خلالها مجّد الأرض بحضوره الفعّال والمهيب. كان الشهر الثاني عشر خائنه، ومن خلال هذا الخائن قابل موته في الإنقلاب الشتوي، وإنحدر إلى مسكن الموت، فقط لينهض ثانية، على أية حال، بكلّ مجده وفخامة قوّته من أجل الخلاص الأبدي للإنسان.

نجد هذه النسخة ممثّلة في أساطير أوزيريس، مثرا Mithras، بوذا، كريشنا وكلّ المخلصون الآخرون للعالم المولدون من عذراء. ورغم إنفصالهم الكبير، في الزمان والمكان، فقد قيل أن كلّ منهم كان قد ولد في اليوم الذي يقابل يوم الخامس والعشرين من ديسمبر في تقويمنا المعاصر؛ لأنه هو اليوم الذي تولد فيه الشمس. يمضي الإنقلاب الشتوي، ويبدأ النجم العظيم رحلة الإنعاش شمالا.

عند اللحظة الأولى بعد منتصف ليلة 24 ديسمبر، تحتفل كلّ أمم الأرض، كما لو أنّها في إتفاقية مشتركة، بولادة ملكة السماء، أو الأمّ العذراء، ومولد الإله. على أية حال، لم يُتّفق على هذا التاريخ بشكل عام، إلا حوالي القرن الخامس من العصر المسيحي كعيد ميلاد ليسوع المسيح؛ البعض إختار يوم 19 أبريل، آخرون إختاروا 20 مايو، وما يزال آخرين يحتفلون به في الخامس من يناير. لقد كان من المحتمل وجود تشويش رافق مثل هذا الخلاف قاد آباء الكنيسة لتعيين الـ 25 من ديسمبر تاريخا لولادة المسيح؛ وهو اليوم الذي إحتفلت فيه كلّ الأمم الأخرى بحدث مماثل.

في الهند، هو يوم لمناسبة إبتهاج عالمي. تزين البيوت بالأكاليل، ويتبادل الأصدقاء الهدايا، إنسجاما مع عادة موغلة في القدم. وكان عند الفرس القدماء يوم للإحتفال تكريما لربهم ومخلصهم، مثرا. رأى المصريون القدماء أيضا أن هذا اليوم هو ذكرى ولادة مخلصهم، حورس Horus، الذي عبد، مع أمّه العذراء، إيزيس، ألفي سنة قبل زمن موسى. كان أكبر مهرجان عند الإسكندنافيين في هذا

الوقت من السنة، عندما كان اليول Jul، أو Yule عيد الميلاد، يحتفل به تكريما لفريير Freyr، إبن إلههم الأعلى.

يمكننا، ربما في قصّة كريشنا، المخلص الهندي، أنّ نجد النسخة الأكثر إتقانا، وفي نفس الوقت الأكثر إرتباطا مباشرا بأسطورة الشمس البدائية. لقد حملت به، عن طريق الروح القدس، وولدته العذراء ديفاكي Devaki، في كهف، قبل حوالي ثلاثة ألف سنة. وقد بشّر بوصوله نجم متألق، وبالأناشيد البهيجة للملائكة، أو الأرواح، التي ظهرت في السماوات وأعلنت الأخبار السارة إلى الفانيين المتعجّبين المندهشين والمرعوبين. وعند إعلان ولادته جاءا رعاة ماشية متواضعون وأنبياء عظماء وسجدوا أمام الطفل المقدس، بينما كان، وفي نفس الوقت، المستبدّ كانسا Kansa يطلب قتل كلّ الأطفال الذكور، بدافع الخوف من هذا الحاكم المولود حديثا؛ إلا أن المخلص قد هرب بإعجوبة.

مصحوبوا بأتباعه، الذي عرف بينهم باسم جزيوس Jezeus، جال حول البلاد، يعلن سلاما وخلاصا، يعلم مذهب الحبّ والتواضع، ويشفي المرضى، ويعيد للمعوّقين أطرافهم، والصمّ سمعهم والعمي بصرهم، ويحي الموتى؛ وحتى، بعد الكثير من الإضطهاد، وخلال خيانة أحد أتباعه، تخلّى عن حياته للتكفير المقدس عن ذنوب العالم. قابل موته على الصليب، وأصبحت صورة المصلوب شعاره ورمزه المقدّس؛ ولم تكن تصاوير الصلب غير شائعة بين نحاتي الهند القديمة، والسجلات التصويرية التي وجدت تعرض كريشنا المبعوث حيا من الموت، وبه علامات لثقوب في يديه وقدميه.

أظلمت الشمس ساعة موته، أمطرت السماء نارا ورماد، ومشى الموتى ثانية على وجه الأرض. هبط إلى مسكن الأرواح المغادرة، وفي اليوم الثالث قام من الأموات وأصّعد جسمانيا إلى السماء، من حيث، وطبقا لنبوءته الخاصة، سيأتي ثانية فى اليوم الأخير للعالم، عندما إنتهاء العصور؛ وعند مجيئه ستظلم الشمس ويخبو نور القمر، وسترتعد الأرض، وتسقط النجوم من السماء.

وصلت مهرجانات موسم الربيع القديمة، إحتفالا بتكريم الحياة المنبعثة، لأقصى تطور عالى وإتقان لها في مصر واليونان وروما، وكانت تعرف بإسم "الأسرار mysteries". شكّلت هذه الأسرار الميزّة الأكثر أهمية وقدسية للعبادة الدينية القديمة، وتركت إنطباعها على كلّ عصر وجيل، وصولا الى يومنا هذا، في شكل تنظيمات باطنية وجمعيات سرية.

لقد كانت مشهورة جدا بسبب السرية التي تجري فيها العديد من طقوسهم، وبسبب الغموض العميق والمقدّس المرتبط بها. هذا الحبّ للغوامض والأسرار هو حبّ متأصّل في الجنس البشري، وكما قد يتخيّل، فقد كان يعرض في أكثر أشكاله حدّة بين الناس العاطفيين والمؤمنون بالخرافات في العصر القديم.

إستثمر الكهنة رموز وشعائر وطقوس إحتفالاتهم بأهمية باطنية وغامضة، غير الواضحة للجماهير، والتي تُعهد فقط إلى أولئك الذين، بعد إجتياز أكثر المحاكمات حدّة لإختبار الإيمان والتحمّل، وجدوا مستحقّين لتلقي الأسرار المقدسة. بعدها يتم إحاطتهم علما بالعقائد السامية والغامضة التي تطوّرت بالكهانة من العبادة البسيطة للطبيعة؛ عقائد شكّلت تصوّف أكثر الشخصيات عُلوّا وروحية؛ كبير ورفيع في إحترام لتعاليمها ومثاليتها وفي جمال مفاهيمها الشاعرية.

كان أحد أهم وأكثر السمات الشعائرية صونا وحراسة مقدّسة لهذه الأسرار، والمعروفة بالطقس الديني المقدّس، تبجيل الإله بأكل لحمه وشرب دمه، على شكل خبز ونبيذ مكرّس، الذي كان يمرره كهنة بزيٍّ أبيض ويتناوله بجدية الداخلون الجدد للأسرار في مشاركة مقدسة.[41]

كان أكل جسد ودمّ الإله بهذا الإسلوب الرمزي شعيرة دينية مشتركة بين كلّ أديان شعوب العالم القديم، بما في ذلك القارة الغربية، حيث، ولمدة طويلة قبل إكتشافاه من قبل الأوربيين، إحتفل المكسيكيون والبيروفيون بما دعوه أكثر الأعياد قداسة، والذي أكلوا فيه لحم إلههم وشربوا دمه؛ وهم يتناولون اللحم الحقيقي والدم، بشكل نادر، عوضا عن البدائل المجازية.

في الأهمية البدائية لهذا الطقس الديني، كما هو مشهور في الأسرار الإليوسينية Eleusinian، كان الخبز يمثّل سيريس Ceres، إلهة الذرة، بينما وبطريقة مماثلة مثّل النبيذ باخوس Bacchus، إله النبيذ، الذي أعطى دمّه ليعيش البشر؛ لذا، وقبل مذهب الإستحالة الجوهرية، الذي أصبح ضروريا فقط عند التطور العالي للعبادة الرسمية والدقّة اللاهوتية، كان الخبز والنبيذ قد عبدا بإعتقاد بسيط إنّهما كانا الجسم والدمّ الحقيقي، المادة الفعلية، لأمّ الحياة وأبيها.

هذا التمييز لهذين العنصرين، وإنسابهم لآلهة منفصلة، يوجد أيضا في سجلات الأسرار المصرية القديمة، مع أن أهميتهما قد عكست بموجب رمزيّة العبادة القضيبية. مثّل النبيذ إيزيس، أو العنصر النسائي؛ بينما كان الخبز، الذي صنع على شكل كعكة دائرية مسطحة، فقد مثل الشمس، والذي كان رمز أوزيريس، أو المبدأ الذكوري؛ وكان تناول كليهما يعد دليل على التجدد، أو الحياة الآتية.

أسرار إيزيس وأوزيريس، في مصر، وأسرار البابليين، والأسرار الإليوسينية لليونانيين، وأسرار باخوس وفينوس في روما، سوية مع غيرها من الأسرار الأخرى الكثيرة والأقل أهمية، كانت كلّها مهرجانات إحتفالا بالحياة المولودة الجديدة والإتحاد المجدّد للعناصر الخالقة للطبيعة. لقد بُيّنت جميعها وصوّروت بشعائر جدّية ورائعة ورموز باطنية، الظواهر العظيمة للطبيعة في خلقها وتخليدها للحياة.

---

[41] يشبه هذا الطقس ما يقوم به المسيحيون من تناول الخبز والخمر و/أو الماء في العشاء الرباني holy communion، الذي يتحول فيه هذا الخبز والخمر المكرس الى لحم ودم مسيحهم، وبأكله فإنهم يتحدون مع ربهم.

حملت هذه المهرجانات الربيعية عند اليونانيين والرومان تكريما لباخوس، أو ديونيسوس Dionysos، إله الحياة. كان يدعى أب الآلهة والرجال؛ "مُنجبٌ من الحُبّ" (ولدته عذراء خلال حبّ نظيف)، وكثيرا ما مثّله الرومان تحت اسم وشكل بريابوس Priapus.

أخذا بعين الإعتبار الحالة العامّة المحافظة والصارمة التي كانت تعيش فيها النساء الإغريقيات، يمكننا أن نكوّن فكرة عن الإحترام العالي الذي نالته هذه الشعائر، والتأثير القوي الذي مارستها على العقل والعواطف، عندما نلاحظ كم كان غلو الحماس الديني لهؤلاء النساء اللائي يمارسنه في مثل هذه المناسبات، خصوصا في إحتفال الأسرار الإليوسينية والديونيسيا Dionysia.

وضعت الرئيسات الخطيرات والأميرات الفخورات، جانبا على ما يبدو، كلّ كرامة وتواضع، وتنافسن مع بعضهن البعض في المرح. فقد جرين يصرخن إلى الغابة وعلى الجبال، يلبسن بشكل خيالي أو نصف عاريات، يتشابك شعرهن مع أوراق اللبلاب والكرمة، وليس من النادر، مع الثعابين الحيّة، التي تلتف حول رؤوسهن ورقابهن. تصبح حماسهتن الدينية عظيمة جدا أحيانا، حتى أنّهن يأكلن اللحم نيئا، يمزّقن لحم الحيوانات الحيّة إربا بأسنانهن، ويلتهمنها، وهي ما تزال دافّئة وتخفق.

في هذه المناسبات الإحتفالية كانوا بشكل مماثل يذهبن إلى المعابد أو الأماكن الأخرى المعتبرة مقدّسة بحضور تمثال الإله، ويقدمن هناك العطايا إلى الرمز المقدس، بتكليل القضيب بالزهور ودهنه بنبيذ محضّر خصيصا. كانت ولاءاتهم ترفق دائما بالموسيقى والنبيذ، التي أعتبرت الوسائل المقدّسة لتمجيد ورفع مستوى العقل إلى إتصال أقرب مع القوّة المقدسة؛ وهؤلاء المريدات المتحمسات يُسلِّمن أنفسهن طوعا لمعانقات متعبدين، من الجنس الآخر، لا يقلون حماسة، في المراسيم الليلية، التي كان هدفها، تمجيد الإله بالإنغماس في فعل التناسل المقدس.

إستعار الرومان أشكالهم الدينية وشعائرهم من الإغريق، ورغم أنهم لم يمتصوا الصفتان الشعريتان، العاصفة والحماسة: اللتان ميزتا الإحتفاليات الإغريقية، فهم كانوا مع ذلك مؤمنون ومخلصون. كانت أسرارهم الباخانالية Bacchanalian يُحتفى بها في معبد باخوس، في روما، وفي الغابة المقدّسة قرب نهر تيبر Tiber. في باديء الأمر كانت هذه المراسيم تجرى نهاراً، وتخدم فقط بواسطة النساء، اللواتي دخلن إلى الأسرار على يد الكهنة؛ لكنّها بعد ذلك إحتفل بها ليلا، وكان إدخال الصغار من الذكور مسموح به، فكان بالنتيجة في مدّة قصيرة أن أدّى هذا إلى دخول أولئك الذين لم يكونوا في حالة إنسجام مع الروح الدينية للمناسبة، لكن إستغلّوا الفرصة للإنغماس في الممارسات الفاجرة والجرائم الأخرى التي إختلطت

بشكل سريع وأربكت الهدف الحقيقي للمهرجان، وأدّى أخيرا إلى إلغاء الإحتفال بمرسوم من مجلس الشيوخ.

كانت إحتفالات مثل الليبراليا Liberalia، وفلوراليا Floralia، ومهرجان فينوس: مهرجانات ربيعية شعبية، إحتفل بها الرومان تكريما لآلهة الإنجاب ووظيفتها المنشطة، كما تظهر في أعمال التجديد المجيدة للحياة على الأرض. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه المهرجانات ذات طابع ديني، إستسلم الرومان للمرح، والبهجة والتسالي عامّة، مصحوبين بتحلل عامّ من القوانين والآداب الإجتماعية، كإسلوب ملائم للإحتفال بعودة الحياة والفرح.

كانت مهرجانات موسم الربيع هذه، في إحتفالها بالحياة المنبعثة والقوى المنتجة للطبيعة، شائعة بين كلّ الأمم منذ أقدم الأزمان، ونحن نجد في البعض من الأشكال المعيّنة من هذه الإحتفالات أصل بعض سمات مهرجاننا السعيد—عيد الفصح. إنّ الاسم نفسه مشتقّ من لغة التوتونيين والساكسونيين القديمة، اللذين كانوا يسمون ملكة السماء، أو إلهة الحياة عندهم، إيستر *Eastre*. كرّس شهر أبريل لهذ الإلهة، وكان يقام عيد إبتهاج على شرفها في ذلك الوقت السنة. كان من المألوف عمل هدايا من البيض، الذي يزيّن بشكل زاه أو يلوّن؛ كانت البيضة رمزا مقدّسا لإحياء الحياة، ولذلك إستعملت كعطايا وتقدمات إلى الإلهة في هذه المناسبة.

كان الألمان الأوائل والفرانكيين (الفرنجة) يعدّون أيضا نوع خاصّ من الخبز أو الكعكة، كانت تؤكل في هذا الوقت، كهدية مقدّسة بشكل خاص بعيد الفصح؛ عادة موسم ربيع كانت على نفس النمط شائعة بين المصريين، الذين ضغطوا صورة صليب على كعكاتهم.

البيض والكعكعات معروف أيضا في المناسك الكلدانية التي إرتبطت بعبادة إلهة الربيع، مُجدِّدة الحياة، منذ أكثر من أربعة آلاف سنة مضت، وكانت ميزات مألوفة في عبادة ملكة السماء، عشتار، بحدود أيام سيكروبس Cecrops، مؤسس أثينا، حوالى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد.

كانت هذه الكعكعات القديمة، التي قدمت إلى ملكة السماء، وإستعملت في القرابين إلى الآلهة المنتجة الأخرى، تُشكّل في هيئة الأعضاء المنتجة؛ تقليد أو عادة أشير إليها في سفر إرميا النبي، حيث يقول، "الأَبْنَاءُ يَلْتَقِطُونَ حَطَبًا، وَالآبَاءُ يُوقِدُونَ النَّارَ، وَالنِّسَاءُ يَعْجِنَّ الْعَجِينَ، لِيَصْنَعْنَ كَعْكًا لِمَلِكَةِ السَّمَاوَاتِ".[42]

إن ممارسة عادة صنع كعكعات عيد فصح في هذا الشكل كانت شائع بين بعض المسحيّين الأوائل، وتسود في بعض أجزاء فرنسا إلى يومنا هذا. تصنع الكعكات الصغيرة في شكل قضيب وتقدم في وقت عيد الفصح، وتحمل في المكان وتقدّم من بيت لبيت.

---

[42] سفر إرميا 7: 18

فى مهرجان أحد السعف Palm Sunday، المعروف أحيانا بعيد الأعضاء الخاصّين Feast of the Privy Members، كان مألوفا، ليس لفترة طويل في بعض المقاطعات الفرنسية، وفيه تقوم كلّ النساء والأطفال في الموكب لحمل شكل قضيب، مصنوع من الخبز، يرفق بنهايته سعفة نخلة. هذه القضبان تبارك بعد ذلك من قبل الكهنة، وتحتفظ بها النساء طول السنة.

تقريبا، كلّ هذه المهرجانات والأسرار الربيعية القديمة إحتفلت بعودة أو إحياء إله من الآلهة—الحكاية الرمزية اللاهوتية لتجديد الحياة. وكما ذكر آنفا، كلّ مخلصي العالم قد سُجِّل أنهم قاموا من الأموات، بعد البقاء في القبر لفترة ثلاثة أيام. مثّلت هذه الأيام الثلاثة أساسا الشهور الثلاثة التي تتخّلل بين الإنقلاب الشتوي والإعتدال الربيعي، الوقت الذي فقدت خلاله الشمس (الإله المذكر) قوّته، وكان فيه العالم بدون واهب حياته العظيم.

كريشنا، بوذا، زرادشت، أوزيريس، مثرا، حوروس، باخوس، تمّوز، آتيس، كويتزالوكاتل وغيرهم من الآلهة كثير، قاموا ثانية في اليوم الثالث، بعد أن ماتوا من أجل العالم، وصعدوا إلى السماء. المراسيم والشعائر إحتفالا بذكرى هذا الحدث تجرى دائما في الربيع، وكانت بنفس الشخصية العامّة في كلّ العصور وبين كلّ أمم العالم.

كان موت وبعث تموز Tammuz، أو أدونيس Adonis، الذي، يظهر تحت تشكيلة كبيرة من الأسماء والأشكال، في العديد من الأساطير، قد إحتفل به سنويا في بداية الربيع كل من السوريون، والبابليون، وأمم أخرى. وفي الأسرار التي إرتبطت بهذا الإحتفال، كان تمثال للمخلص يحمل بجدية عظيمة إلى قبر، ولمدة يومين كانت تجري إحتفالات حزينة في ذكرى محاكماته وتضحيته وموته، وفي اليوم الثالث تتحول الأحداث إلى صيحات التهليل عالي وأعياد بالإبتهاج: "الرب ينهض ويحيا ثانية! حيوا الحمامة، معيدة النور!"

حقيقة أنّ بني إسرائيل قد إنغمسوا إحتفالا بهذه الأسرار، حقيقة مسجّلة في سفر حزقيال (8: 14)، حيث يصيح النبي، "هُنَاكَ نِسْوَةٌ جَالِسَاتٌ يَبْكِينَ عَلَى تَمُّوزَ" والطلاب النزهاء للتوراة ليسوا غافلين عن الحقيقة، التي تقول في حالات كثيرة أن الإشارات النبوية المفترضة أنها تبشر بالمسيح والمنسوبة للملك داود والأنبياء، عندما كانوا يشيرون إلى إبن الله، المخلِّص، أو هو الذي يجلس على يمنى الرب، ما هي ببساطة إلا إشارات إلى هذا المنقذ، تمّوز، أو أدونيس، الذي كانت عبادتهما قد أسست لقرون عادة أو تقليد ديني، والتي كانت قصّة ولادته وموته وبعثه إلى الحياة يشار إليها بطريقة حميمة، بتمثيل خلود الحياة أو خلاص البشرية.

إحتفل المصريون القدماء، في أسرارهم، بكلّ ربيع وموت، وكل بعث وصعود لأوزيريس، خالق ومخلص البشرية. كانت المراسم المرافق لهذا الإحتفال ذات

قدسية كبيرة، جرت بأعمق الأسرار والقداسة. عبدت السفينة المقدّسة بشكل موقّر ومسيل للدمع، كونها ضريح الإله المغادر؛ وميّز الرثاء والحداد على موته إفتتاحية طقوس هذه الأسرار. وفي اليوم الثالث من موته، يسير الكهنة، في موكب مهيب، إلى النهر ليلا، حاملين السفينة معهم. منتظرين هناك حتى الصباح للترحّيب بالشمس المتصاعدة بصيحة عالية وسعيدة، يصيحون "أوزيريس يصعد!"

لا يهم لأي جنس ولا لأي عصر نولي وجوهنا، لأننا سنجد نفس التوقير دائما لتجديد الحياة؛ وخلال العدد الكبير من الأساطير، والخرافات، والمذاهب، والطرق والإحتفالات، هي على أية حال، قد تظهر مفرطة أو متناقضة، لأننا نتتبّع الهدف الثابت للبشرية لتمجيد الخالق، ومخلص العالم، كما ممثّل من البدء بالشمس؛ بينما يقبع تحتهم كلّهم الوقار والتبجيل العالمي، والفعال لأعظم أسرار الحياة والمستحيلة الحل— أساس ومصدر كلّ العبادات الدينية. (تم)

- تركت هذه الصفحة فارغة عن قصد -

ملحق

قائمة بالأعمال المنشورة حول الفالوسية

APPENDIX.

LIST OF PRINCIPAL WORKS ON PHALLICISM.

The Anacalypsis. An attempt to draw aside the Veil of the Saitic Isis, or an Inquiry into the Origin of Languages, Nations and Religions.—GODFREY HIGGINS; privately printed.

Ancient Faiths Embodied in Ancient Names.—THOMAS INMAN, M. D.

Ancient Pagan and Modern Christian Symbolism Exposed and Explained.—THOMAS INMAN, M.D.

Ancient Pillars, Stones and Cairns.—THOMAS INMAN, M. D.

Ancient Symbol Worship—Influence of the Phallic Idea in the Religions of Antiquity.—HODDER M. WESTROPP and C. STANILAND WAKE.

Crux Ansata (Handled Cross).—ANON.; privately printed.

Cultus Arborum—A Descriptive Account

of Phallic Tree Worship—ANON; privately printed.

A Discourse on the Worship of Priapus, and its Connection with the Mystic Theology of the Ancients.—RICHARD PAYNE KNIGHT. To which is added an Essay on the Worship of the Generative Powers during the Middle Ages of Western Europe.—ANON.; privately printed.

Eleusinian and Bacchic Mysteries.—THOMAS TAYLOR.

Fishes, Flowers and Fire as Elements and Deities in the Phallic Faiths and Worship of the Ancient Religions.—ANON.; privately printed.

The Hindu Pantheon.—EDWARD MOOR.

The Masculine Cross.—ANON.

Nature Worship, or an Account of Phallic Faiths and Practices.—ANON.; privately printed.

Ophiolatreia.—An Account of the Rites and Mysteries connected with Serpent Worship.—ANON.; privately printed.

Origin of Pagan Idolatry.—FABER.

Phallicism.—A Description of the Worship of Lingam-Yoni in various parts of the World, with an account of ancient and mod-

ern Crosses, particularly the Crux Ansata, and other Symbols connected with the Mysteries of Sex Worship.—ANON. ; privately printed.

Phallicism.—Celestial and Terrestial, Heathen and Christian ; its connection with the Rosicrucians and the Gnostics, and its foundation in Buddhism.—HARGRAVE JENNINGS ; privately printed.

Phallic Objects, Monuments and Remains —ANON. ; privately printed.

Phallic Miscellanies,—Facts and Phases of Ancient and Modern Sex Worship, as illustrated chiefly in the Religions of India.—ANON. ; privately printed.

Rivers of Life, or Sources and Streams of the Faiths of Man in all lands.—J. G. R. FORLONG ; privately printed.

Secret Museum of Naples ; being an account of the erotic Paintings, Bronzes and Statues contained in that famous "Cabinet Secret."—COL. FANIN ; privately printed.

Tree and Serpent Worship, or Illustrations of Mythology and Art in India, in the 1st and 4th centuries after Christ.—JAMES FERGUSON ; printed for the India Office, London.

فهرس أبجدي

أ.

ب.

ت.

ث.

روسيا
روما، رومان
رومولوس
رينود
رينيه

ز.

زرادشت
زند-أفيستا
زهور
زواج
زوج
زوجة
زولفي
زيت

س.

سارة=ساراي
سارية
ساكتي
ساكسون
ستاير
سحر
سرفاتوس
سفينة
سكوتلندة
سلت
سليمان
سماء
سمكة
سهم
سوتشيكويتزال
سوريا، سوريون
سيبيل
سيتا
سيرابيس
سيريس
سيرينباتاو
سيكروبس
سيلان
سيندريلا

ش.

شارة
شتاء
شجر
شر
شعر
شمس
شهوة
شيطان
شيفا

ص.

صباح
صخر
صدر
صدفة، قوقعة
صليب
صمؤيل أول
صندوق
صنوبر
صورة
صولجان
صيف
صين

ط.

طبيعة
طقس
طين

ظ.

ظاهرة طبيعية

ع.

غ.

ف.

ق.

ك.

كريشنا
كعك
كلدان، كلدانيون
كلكتا
كنيسة
كهف
كوبرا
كورنيث
كوزكو
كوزمو
كولومبوس
كولومبيا
كويتزالكوتل
كوينرال
كيوبيد

ل.

لابان
لاهوت
لاوي
لحم
لنجام
لوط
لويس الرابع عشر
ليبر
ليبراليا
ليل

م.

ماعز
مايو
متى
مثرا
مخلص (منقذ)
مدغشقر
مذبح
مرتفعات
مريم
مسمار
مسيحية
مصر، مصريون قدماء
معبد
معزاة
مكسيك
ملاك
ملكة السماء
مهرجان
موسى
موسيقى
مومياء
مونس فينيريس
ميثولوجيا
ميركوري
ميليتا
ميندز

ن.

نار
ناسخ
ناغط (عيد اول مايو)
نبيذ
نجم
نخلة
نهار
نهر
نور
نوفنّا
نيكاراكوا
نينوى

هـ.

***